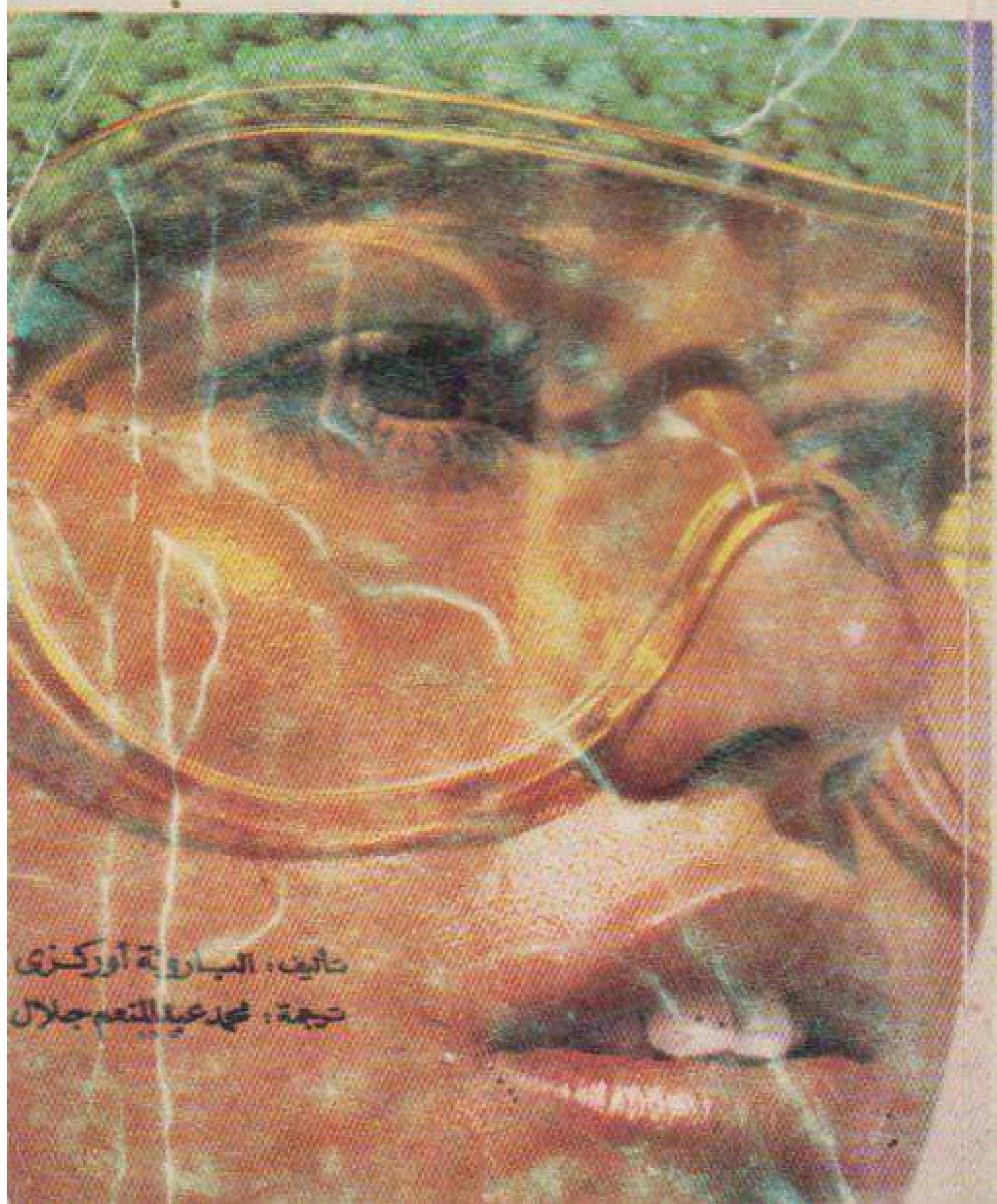
ذو القناع الجلدي

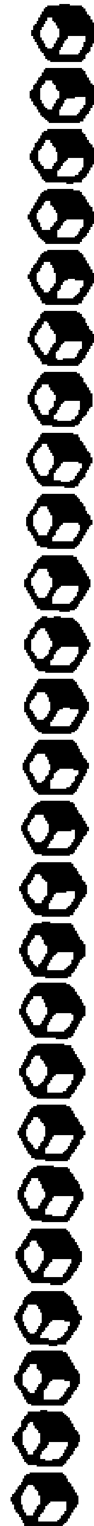


تأليف : البارونة أوركزى

ترجمة : محمد عبد المنعم جلال



ذو القناع الجلدى



تأليف : البارونة أوركزى
ترجمة : محمد عبدالمنعم جلال

مقـــدمة

تبدأ قصتنا هذه فى ليلة خانقة من ليالى سبتمبر . قبل بزوغ الفجر بساعتين . وكان الهلال قد اختفى ، فى الغرب ، منذ وقت طويل ، خلف ستار من السحب ، والهدوء يشمل كل مكان فى المدينة .

وفى الشمال ، كانت نيران معسكر دوق الفا قد خبت ، ولم يكن يقطع سكون الليل الا خطوات الحراس الرتيبة . وفى الجنوب كان السكون اشد ، حيث قبع الأمير اورانج ولا معين له غير حفنة من الرجال غير المنظمين يكادون يخرجون عن طاعته لعدم قدرته على جزل العطاء لهم . كان القائد الباسل يحاول عبثا التحرش بغريمه القوى . وكان الحراس قد نال منهم التعب كل منال ، واستسلموا للنوم فى غير اكتراث ، وقد دفعهم الاعياء الى الاستخفاف بمعنى الواجب وبدأ يبذر فى صفوفهم بذور التمرد والعصيان .

وكان اورانج نفسه قد استسلم للنوم هو الآخر فى خيمته ، بعد ليال طويلة من السهر والعمل المضنى ، وكان حراسه يغطون فى نومهم .

وفجاة ارتفعت أصوات خافتة من ناحية المعسكرات الاسبانية ، وظهرت اشباح كثيرة فى الظلام يشدها البعض همسا الى الطريق نحو معسكر الأمير اورانج .

وتمتم صوت يقول :

ــ دون رامون ... دع للكابتن روميو امر الحراس ومفاجاة العدو بالهجوم ، اما انت فاذهب الى خيمـــة

الامير واخضع رجاله ثم اقبض عليه . ولا تنس ان هناك مائتي دينار مكافأة لك ، ودينارا لكل من رجالك اذا احضرتموه اسيرا .

وانصاع دون رامون دى لينيا للأمر الصادر اليه ، وانطلق بفرسانه الستمائة ، وكلهم من خيرة الفرسان، ولم يكن بين معسكر الفا فى سان فلوريان وبين معسكر اورانج فى هرميين على مقربة من ابواب مدينة مونس المحاصرة غير فرسخ واحد. وكان معسكر سان فلوريان يعج بالحركة حيث يهددون ويرسمون الخطط . اما فى معسكر هرميين فقد استولى النوم على الجميع بما فيهم الحراس انفسهم .

وفى اثناء ذلك كان شعب باسره ينوء تحت نير من راية التمرد بيد انه لم يستطع ان يجمع حوله غير حفنة من الرجال البواسل اخذوا يكافحون بجواره ظلم وطغيان اسبانيا ، وكانت سيدة العالم فى ذلك الوقت. ولم يكن يحرس ذلك البطل الكبير الذى وقف فى وجه الاستبداد فى تلك الليلة غير عدد من الجنود المرتزقة المغمورين .

وكان فرسان دى لينيا قد تقدموا ما يقرب من نصف فرسخ عندما ايقظت يد خشنة الحراس الواحد بعد الاخر .

ــ قفوا ايها الاشقياء ... اقرعوا اجراس الخطر ... هجوم ليلى ... العدو على الابواب .

وقف الرجال وهم لا يزالون يغالبون النعاس واخذوا يدعكون عيونهم . وكانت اليد الخشنة قد ايقظت حرس الامير بدورهم ، وكان الامير راقدا فى خيمته وهو بكامل ثيابه . وصحا فجأة على صوت الحركة التى بدات تدب فى المعسكر وجلس نصف جلسة وقد اتسعت عيناه

فقد ظهر امامه ، بباب الخيمة ، رجل طويل القامة يرتدى ثيابا سوداء ويغطى رأسه بغطاء من نفس اللون ويخفى وجهه بقناع .

ونهض الامير واقفا وهو يقول :

ـ ذو القناع الجلدى ! .. ما الخبر ؟

ارتفع صوت مكتوم من خلف القناع يقول :

ـ هجوم ليلى . ستمائة فارس على الاقل . لولا هذا الظلام اللعين لكنت هنا منذ وقت طويل .

وفى أثناء ذلك كان المعسكر قد امتلأ بالحركة وتتابعت الاوامر وارتطمت الاسلحة والسيوف وارتفع صهيل الجياد فى كل مكان . وسمع دون رامون دى لينيا هذه الاصوات وهو على بعد فرسخ من المعسكر وادرك أن الهجوم المفاجىء قد فشل وأن فرسانه الستمائة على الرغم من مقدرتهم لا امل لهم فى معركة مع جنود الامير اورانج ، فان الجنود المرتزقة غير المنتظمين يعرفون كيف يقاتلون حين يرون ان حياتهم فى خطر فاصدر امره بالتقهقر واضطر أن يقدم تقريره الى رئيسه عندما عاد الى معسكر سان فلوريان فقال :

ـ كان معسكر هرمبين يعج بالحركة ، وكان من المحال الهجوم فى مثل تلك الظروف .

واخذ فردريك دى توليد يسب ويعلن مبديا استياءه، واخيرا قال :

ـ ولكن من الذى انذرهم بالخطر ؟

زمجر دون رامون والشرر يتطاير من عينيه وقال :

ـ لابد انه الشيطان بنفسه .

وفى خيمة أورانج كان الرجل المعروف باسم « ذو القناع الجلدى » يتأهب للانصراف فى هدوء وسكون مثلما اقبل ، وقال :

— انهم لن يهجموا الآن يا مولاى فقد عرفوا ان جنودك مستعدون للقائهم . ولكننى لو كنت مكانك لأعدمت جميع الحرس ، فان هؤلاء الجبناء كانوا يغطون فى النوم عندما بلغت المعسكر .

ثم حيا أورانج التحية العسكرية وهم بالانصراف لولا ان امسكه الأمير من ذراعه قائلا :

— ولكن كيف استطيع ان اشكرك أيها السيد ؟

فأجابه الرجل : بان تحافظ على حياتك يا مولاى ، لأن قضية حرية البلاد المنخفضة تموت بموتك .

ابتسم اورانج وقال : اذا كان الأمر كما تقول فان قضية حريتنا تدين لك بالكثير فهذه عاشر مرة تنقذ فيها حياتى .

— مادمت لا تريد أن تتركنى احارب فى صفوفك يا مولاى فلابد ان . . .

ولكن الأمير قاطعه بحركة من يده وقال :

— اصبر أيها السيد ، فسوف امنحك كل ما تريد . وانى اعلم انك سوف تكون جنديا باسلا بقدر ما انت صديق مخلص . ولكن اذا اردت الحق ، الا تعتقد أنه يكفيك ما تقدم لنا من خدمات ؟ فانك فضلا عن انقاذك حياتى قد احبطت معارك العدو بانذاراتك ، وانقذت جيوشى وجيوش اخى وبفضلك لم تصل نجدات وامدادات نوار كارم وفردريك الى الدوق الفا الا بعد فوات الأوان . . . آه صدقنى ايها السيد ان الله هو الذى اختارك لهذه المهمة .

فأجابه الرجل وفى صوته مرارة :

— نعم . . . وهى مهمة جاسوس يا مولاى .

— كلا ايها السيد . اذا كنت تدعو نفسك جاسوسا

فاعلم اذن ان كلمة جاسوس هى منذ الآن لقب من القاب المجد والبطولة وانكار الذات .

وبسط الأمير يده الى الرجل المقنع فانحنى هــذا الأخير فى احترام فى حين استمر الأمير يقول :

ــ ها أنت ترى ايها السيد اننى احترم الميثاق الذى بيننا فاننى لم انطق باسمك ولو مرة واحدة حتى ونحن بمفردنا .

ــ واننى اشكر لك ذلك يا مولاى . اسال الله أن يقيك كل شر .

وانحنى الرجل مرة اخرى واسرع الى الباب واوشك أن يختفى عندما استدعاه الأمير قائلا فى انفعال :

ــ متى اراك ثانية ياذا القناع ؟

ــ عندما تكون حياتك يا مولاى او امان جيوشك فى خطر .

وابتلعه الظلام . وتمتم الأمير اورانج :

ــ ليباركك الله يا صاحبى .

القسم الأول
بروكسل

الفصل الأول
مجلس الدم

مرت أيام لم تتجاوز الشهر على الحوادث السابقة انتصر فيها الاستبداد مرة أخرى ، فسلمت مونس ولجأ اورانج الى هولندا برفقة رجاله المعدودين .

دمرت فالنسيين ومالينى .. مالينى ، المدينة الرائعة الجميلة العظيمة بكنائسها ونصبها القديمة التى تشهد بروعة الفن وتقدم الحضارة ، تركت للجنود الأسبان عرضة للسلب والنهب ثلاثة أيام كاملة .

أيام قلائل لم تتجاوز شهرا جعلت من الأمير أورانج هاربا ، وحطمت آمال شعب ينوء تحت وطأة الاستبداد والاستعمار الى حد أنه خيل لهذا الشعب أن الله قد تخلى عنه وأولى ظهره للقضية المقدسة فسقطت مونس وتحولت مالينى الى رماد فى الوقت الذى أعدم فيه ملك فرنسا ، عبر الحدود ، عشرة آلاف من رعاياه فى يوم عيد القديس بارتليمى لا لشىء الا لانهم يخالفونه فى عقيدته .

وكان أورانج وجيشه الصغير يعتمدون على مساعدة ملك فرنسا لهم ، وكان قد وعدهم بها . ولكن

نبأ المذبحة البشـــعة التى ذهب ضحيتها عشرة آلاف بروتستانتى تقوض آمالهم وجعلهم يعمدون الى الفرار ؟ وقد اهتزت أوروبا لهذه الجريمة النكراء ، ولكن كان من نتائجها انتصار الطاغية الاسـباني على البــلاد المنخفضة ، وهكذا انتصر الدوق الفــا ، وتعين على البلاد المنخفضة ان تبقى قرونا كثيرة قبل أن تعــرف الحرية اخيرا .

وكان الدوق الفا يقيم فى قصر كبير ويجتمع فى احدى قاعاته اعضـاء المجلس الأعلى او بعبارة أصح « مجلس الدم » وكان الدوق يراس الاجتماع فى ذلك اليوم وقد جلس على يمينه جيان دى فارجاس وعلى يســاره البيريك ولريو .

اما فارجاس ، ذراعه الايمن ، فلم يكن مجرد اداة كرميله ، بل كان لا يفتأ يبتدع شتى الأساليب لاخضاع واذلال اهالى البلاد المنخفضة .

وهكذا اجتمع الشـياطين الثلاثة لاذلال الشــعب المسكين وتحطيم معنوياته فكان الدوق الفا الارادة التى تصدر الأوامر وفارجاس الراس الذى يدير ودلريو اليد التى تضرب .

كانوا رسل فيليب الثانى ، الحاكم المستبد ، وكان يعتمد عليهم لادخال اساليب ديوان التفتيش فى البلاد المنخفضة ولتثبيت سيادة الاسـبان ولاستخلاص ما يكفى من الذهب لرى ارض اسبانيا الدائمة العطش . وكان الدوق الفا حريصـا على ان يكتم الثورة التى كان اورانج روحها الغامضة وكان لا يفتأ يقول : « ان بحيرة الذهب التى ستجرى من البلاد المنخفضة حتى مدريد سيكون عمقها مترا » .

ومما يؤسف له ان بعض اشراف البلاد المنخفضة باعوا ضمائرهم وتجردوا من كل احساس وشعور فانضموا الى المستبدين الثلاثة وانقلبوا على شعبهم شر منقلب . ومن هؤلاء المستشار هسلس والرئيس بير ارسبنس والشريف هوبر .

وحضر اجتماع مجلس الدم فى ذلك اليوم دون رامون دى لينيا ، وهو مثال الجندى الاسبانى القح ، يتنكر لكل ما هو نبيل وكريم على الرغم من انه ينتمى الى طبقة النبلاء ، وكان هو الذى دبر تدمير مدينة مالينى تنفيذا للاوامر التى صدرت اليه من القائد دوار كارم . وكان قد تلقى امرا بالحضور شخصيا ليذكر تفاصيل ما حدث للحاكم العام ، وجلس فى ذلك اليوم ، الثانى من اكتوبر سنة ١٥٧٢ فى قاعة المجلس وقال وقد انتفخت اوداجه لفرط سعادته .

ــ ثلاثة ايام مجيدة قمنا فيها بعمل طيب وادى رجالى عملهم خير اداء ، فقد نصحت رجالى بان ينهبوا كل ما يستطيعون نهبه ليستعيضوا بذلك عما تاخر لهم لدينا من مرتبات . ومهما يكن من امر مالينى قد نالت جزاءها نظير ايوائها للمتمردين العصاة .

واستطرد يقول فى غلظة :

ــ ان جنودنا لم يتركوا رغيفا واحدا فى المخابز ولا اوقية واحدة من الحنطة فى المتاجر . وقد شنقنا النبلاء بواقع عشرين نبيلا كل يوم ، واستولينا على اموالهم وممتلكاتهم لصالح ملكنا العظيم ، واعود فاقول انه لم يبق فى مالينى حجر واحد وان اغنيائهم يتسولون اليوم وان اهاليها قد تفرقت . كانت منذ شهر واحد مدينة عظيمة ولكنها لقيت جزاءها الحق واصبحت فى خبر كان .. ولكن يخيل لى انك غير راض ...

ونسى رامون صفة الدوق الفا ففقد جاشه وهوى بقبضة يده على المائدة فى عنف ونظر الى الدوق فى غضب وصاح :

ــ كيف ، الست راضيا ؟ ماذا تريد اكثر من ذلك ؟ ... اية براهين اخرى يجب ان اقدمها لكى اثبت ولائى للملك فيليب ؟

نظر الدوق الفا اليه فى برود وقال فى بطء :

ــ خيرا فعلت ايها السيد ــ ومع ذلك فلا يكفى كل ما فعلت . ما الجدوى من تدمير المدينة بعد ان افلت المجرم الرئيسى ، قائد العصيان والتمرد ؟ ... تقول انك شنقت عشرين رجلا كل يوم ؟ ... مرحى ايها السيد .. كنت اوثر ان اهبهم الحياة فى سبيل ان ارى راس اورانج تتدلى من المشنقة .

اجاب دون رامون فى استياء :

ــ ان اورانج سرح رجاله وهرب الى هولندا ، وقد صدرت الى الاوامر بتاديب مالينى لا بمطاردة الامير .

فقال الدوق فى حدة :

ــ انك تعرف ايها السيد ان الامر باحضار اورانج حيا او ميتا يعلو فوق كل امر آخر .

وقد اجمع المجلس على ذلك فى نفس اليوم الذى تم فيه اعدام اجمونت ودى هورنز وافلت اورانج منا .

وقال فارجاس : انه يفلت منا دائما ، فقد هاجمناه ليلا اثناء حصار مونس ست مرات ولم نفلح ابدا لان هناك من كان يحذره فى الوقت المناسب .

انتهز رامون هذه المناسبة فقال فى مرارة :

ــ اننى اعلم ذلك يا سيدى ، فانا نفسى الذى كنت اقود الهجوم كل مرة . كنت ادبر كل شىء خير تدبير ، ونتقدم فى الظلام الحالك فى سكون كالأشباح ، سرا

ودون ان نطلع احدا على خططنا . ومع ذلك فقد كنا نفشل كل مرة لأننا كنا نجد معسكر اورانج فى انتظار هجومنا ؛ ولم يكن يسعنا الا ان نرتد ، وما اظن الا الشيطان نفسه هو الذى كان يخطره كل مرة بقدومنا .

قال الدوق متهكما :

ــ بل جاسوس يفوقكم جميعا دهاء ومكرا .

وتدخل دلريو فقال :

ــ اننى اشاطر دون رامون دى لينيا رايه . فلا ريب ان هناك ملاكا حارسا يسهر على أورانج . او لعل اورانج نفسه يحمل طلسما خفيا يقيه كل خطر . لقد حاولت الايقاع به انا نفسى فاطلقت خلفه بيراس ، ابرع من استخدم الخنجر ثم لورنزو الذى لا يفوقه احد فى استخدام السموم ، وغيرهما كثيرين ، ولكن لم يفلح احد فى الوصول الى الامير كما لو ان رسولا خفيا كان يحذره بالخطر كل مرة .

وقال الدوق الفا :

ــ كل هذا لا يهم ، انما المهم ان اوامر صاحب الجلالة الاخيرة لا تقبل الجدل فهو يطالب بموت اورانج، وقد صدرت أوامره بعدم تدمير اية مدينة او باقامة اية مذبحة الا بعد اعدام اورانج ، فانى اعتقد ايها السادة ان هناك تاثيرا قويا على ملكنا المحبوب ، فيبدو ان الامبراطور احتج بقوة ، وباقى دول اوروبا ترى بعين الاستياء تدمير مدن البلاد المنخفضة .

قال احد الحاضرين على الفور :

ــ ولكنها مدن تستحق التدمير فهى قد رفعت راية العصيان .

فأجاب الدوق : نعم،وانى اعلم ذلك ، ولكن لا يمكننا أن ننسى ان التاج الامبراطورى فى الوقت الحاضر على رأس رجل ضعيف وان مليكنا المحبوب لا هم له الآن الا ارضاء الامبراطور وهو يطالبنا فى رسالته الاخيرة بان نضع حدا لهذا التدمير اللهم الا اذا رفعت مدينة اخرى رايه العصيان من جديد .

فصاح رامون : — وما رايك اذن فى مدينة جنت ؟ ... الا يكفى ما فيها من عصيان ؟

— مادمت تتحدث عن جنت ايها السيد فاحضر لى الدليل على ان هـــذه المدينة اللعينـــة تؤوى اورانج وجيوشه ، وانها تقدم له المعونات المالية ، وانه يدبر فيها المؤامرات ضد حكومتنا ودع الباقى لى أنا .. سأسلم اورانج الخائن للمـــلك واثبت للامبراطـــور ماكسيمليان ولاوروبا اننا لا ندمر اية مدينـــة جورا وظلما .

وامسك هنيهة ردد فيها بصره فى القوم المحيطين به ثم قال :

— اننى اريد ادلة ايها السادة ، واظن ان هذا ليس بالامر العسير . اننى اعتقد اننا بحاجة قبل كل شىء الى صديق مخلص فى هذه المدينة . ان الجاسوس الذى ينتظر مرتبه لا يكفى لانه يكون فى اغلب الاحيان غير قدير على اداء مهمتـــه ، كما انه يكون عرضـــة للشبهات دائما .

لقد كان اروانج فى جنت وانى واثق انه سوف يعود اليها لان له فيها اصدقاء كثيرين وهو بحاجة قصـــوى الى المال ، ولعله يحاول ان ينظم جيوشه فيها .

وقال المستشار ارسنز :

ـ سيفلت اورانج منك ياصاحب الفخامة طالما بقى ذو القناع الجلدى طليقا .

واردف فيجليوس : ـ يقال انه من اهالى جنت .

فقال الدوق : ـ لا اخالكم من البساطة ايها السادة بحيث تعتقدون اننى لم اتخذ الاجراءات الضرورية بمجرد أن صدرت الى اوامر صاحب الجلالة . اننا نريد ان نضرب جنت وكلنا متفقون على ذلك . ماذا يريد صاحب الجلالة ؟ انه يريد موت اورانج اولا ، وادلة واضحة على العصيان ثانيا . واليكم خطتى لكى نبلغ هذين الهدفين فى وقت واحـــد .

وتدخل الرئيس فيجليوس قائلا :

ـ الا ينبغى ان ينسحب دون رامون دى لينيا اولا ؟

. . . فانى اعتقد ان فخامتـــك لا تريد ان تطـلـع على خططك غير اعضاء المجلس .

نهض دون رامـــون لينصرف ولـــكن فارجاس قال فى لهجة لا تقبل الجدل :

ـ بل ليبق معنا . فان الخطة التى سنناقشها تهمه لان صاحب الفخامة راى ان يعهد اليه بقيادة جيوشنا فى مدينة جنت .

طار فؤاد دون رامون فرحا . . . قائد الجيوش فى جنت ! لم يكن يتوقع هذا النبأ حقا . . . كانت الشائعات تقول منذ وقت طويل ان الدوق الفا سيزور مدينة جنت زيارة رسمية . وهذه فرصة طيبة فسوف يبرهن هناك على مقدرته وكفايته ويحظى باهتمام الحاكم العام ، وازاء هذا النبأ تبددت مخاوفه وراى ابواب المستقبل تتفتح له ، ويكفيه فخرا اشتراكه الفعلى فى مناقشات المجلس الاعلى .

واستطرد الدوق فى حديثه فقال :

ــ اننى أعددت خطة ما كانت لتفلح ايها السادة لولا تعاون السيد جيان دى فارجاس وابنته تعاونا صادقا معى ، فاننى بحاجة كما سبق أن قلت لكم الى اية اداة أحقق بها اغراضى داخل مدينة جنت ، فاننى واثق ان اورانج دائم التآمر ضدنا فى هذه المدينة ، ولم يفلح جواسيسنا فى اقامة الدليل على ذلك لأن الاهالى شديدو الحرص ، ولهذا فنحن بحاجة الى خادم مخلص صادق فى قلب المدينة ياتينا بالانباء الصادقة أولا باول، ولا ريب ان بعضكم ايها السادة قد أدرك العلاقة بين الخطة التى رسمتها وبين ابنة صديقى المخلص دون جيان دى فارجاس . لقد قررت ان تتزوج ابنة دى فارجاس من أحد أهالى مدينة جنت ذوى النفــوذ . وسيسمح لها هذا الزواج بان ياتينا بأنباء جنت وبأن تكون حليفتنــا المخلصــة فتساعدنا على القبض على ذى القناع الجلدى الغامض وعلى التخلص من اورانج فى نفس الوقت . وسيتسنى لها كذلك أن تفتح ابواب مدينة جنت أمام جيوش دوق رامون الظافرة .

وكان يتكلم وهو يضرب المائدة بقبضته ، ولم يشك أحد من أعضاء المجلس فى الارادة الباردة الصــارمة التى تحرك هذا الرجل . على أن أحدا لم يجرؤ على سؤاله . وأحس دون رامون بنظــرة دى فارجاس الفاحصة وهى تحدجه ، واستطاع أن يملك نفسه بشق النفس وتمتم يقول : ــ

ــ هل تدرك دونا لينورا دى فارجاس مدى هــذه الخطة ؟ .. الا تظن ان المرأة ...

فقاطعه فارجاس قائلا :

ــ ان ابنتى أيها السيد مواطنة اسبانية مخلصة قبل أى شىء آخر ، وقد تعلمت الطاعة لا الجدال ،

وهى الآن فى سن تجعلها تنسى بعض حماقات الشباب.

ونطق بهذه الكلمات الاخيرة وهو يرمى الشـاب بنظرات مثقلة بالتهديد والوعيد واستطرد يقول : —

— وان حبها للكنيسة وللملك والوطن وحقدها على العصاة . لكفيلان بان يرشداها فى تصرفاتها .

لزم دون رامون الصمت . كان قد ادرك مايعنيه الآخر بحماقات الشباب . كانت لينورا دى فارجاس جميلة وغنية حقا ولكن لم يكن من الحكمة أن يطلع أباها على مدى اضطرابه وانفعاله ازاء ما سمع ، وآثر الا يشترك فى الخطة المرسومة وان يتظاهر بعدم الاكتراث .

وقال بيير ارسينز : — هل تستطيع أن تعلم على من وقع اختيار صاحب الفخامة ليكون زوجا لمثل هذه المرأة النبيلة ؟

أجاب الدوق : — نعم . لقد وقع اختيارى على ابن السيد شارل فان ريك ، حاكم مدينة جنت .

فصاح البير دلريو : — ولكن آل ريك من الخونة يا سيدى . صحيح انه ليس هناك ما يمكن ان يقال عن الأب وعن الابن الأصغر مارك فيما عدا أن هذا الاخير لا عمل له الا السكر والعربدة ، ولكن الام والابن الاكبر ... انهما من المشايعين لاورانج ، وقد لفتا اليهما أنظار ديوان التفتيش مرارا ، ولو ان الامر ترك لى لأمرت بشنق الحاكم وولديه وحرق المرأة منذ وقت طويل .

قال الدوق فى برود :

— ان فان ريك حاكم مدينة جنت ، وهو كاثوليكى طيب ، وكذلك زوجته . وأهالى المدينة يؤيدونه تأييدا

كبيرا ويحبون ولديه . ولم نر من المناسب حتى الآن ان نتدخل فى شئونهم ومع ذلك فقد ارسلت الى الاب انذارا ملأ قلبه هلعا ثم اطلعته على رغبتى فى أن يتزوج ابنه الأكبر ابنة جيان دى فارجاس فلم يخطر له ان يرفض .

سأله الرئيس ارسينز : ــ وما هى الاسباب التى بررتم بها هذا الزواج لشارل فان ريك ؟

فصاح الدوق : ــ الاســباب ؟ ... وهل نبرر تصرفاتنا لرعايانا ؟ اننا نصــدر الأوامر ولا شىء غير الاوامر ايها السيد ؟ لقد قلت لفان ريك اننى اريد أن يتم هذا الزواج فورا فلم يسعه الا ان يقبل .

ــ يمكننا أن نهنىء العروسين قريبا اذن ؟

فقال الدوق : ــ لكم ان تفعلوا ذلك ابتداء من صباح الغد فان السيد دى فارجاس ذاهب الآن فورا الى جنت ليخطب ابن فان ريك لابنته ، وسيتم الزواج بعــد اسبوع . وجلالة الملك يؤيد خطتى ويريد أن يتم كل شىء فى اقرب وقت ، ودون جيان دى فارجاس موافق ولا يجرؤ السيد فان ريك على الرفض . وامام دونا لينورا الفرصة لتثبت ولاءها للملك ولتدفع بلادها الى العظمة والمجد واذا اســتطعنا التخلص من اورانج واخضاع جنت بفضلها فان اباها يستطيع ان يطلب منا ما يشاء .

وتحول الى فارجاس وهو ينطق بهذه الكلمات الاخيرة وبسط يده اليه فاخذها هذا الاخير فى احترام وانحنى قليلا على الخضوع .

واستطرد الدوق يقول :

ــ وانتم الآن تعلمون السبب الخفى الذى يدعونى لزيارة جنت ، فاننى لست ذاهبا اليها لكشف الستار

عن تمثال ملكنا في الميدان الكبير فحسب ، بل لكي ارى ما تكون دونا لينورا قد حققته من عمل اثناء ذلك ، وسيكون قد مضى على زواجها اكثر من اسبوع عندئذ، وسيقيم السيد دي فارجاس في جنت بصفة دائمة فسوف اصدر غدا قرارا بتعيينه مستشارا قضائيا وستقام الحفلات العامة طوال الاسبوع الذى يسبق الزواج . وأنتم جميعا مدعوون فى ذلك اليوم ، فاختلطوا بالشعب وافتحوا اعينكم وآذانكم جيدا واجمعوا الأدلة على عصيان جنت وانى اتعهد لكم ان اولى الغنائم ستكون من نصيبكم ، ولا تنسوا ان المدينة تزخر بالكنوز .

وانصرف اعضاء المجلس الواحد اثر الآخر وهم ينحنون فى احترام امام الدوق ، ولم يبق معه الا فارجاس ودلريو ... وسار دون رامون والدنيا لاتسعه لفرط سعادته ، وكيف لا يكون سعيدا وهو قد اصبح قائد جيوش جنت .. كان يرى فى هذا التعيين شرفا ... صحيح أن دونا لينورا جميلة وغنية ولكنه اصاب ثروة كبيرة وهو يساهم فى تدمير مدينة مالينى ، وسوف تزداد ثروته عند تدمير مدينة جنت ، ومع ذلك فقد احس بشيء من الخيبة لمجرد تفكيره فى أن دونا رامونا قد افلتت من بين يديه .

وقبل ان يصل الى الباب الخارجي للقصر اسرعت اليه امرأة مسنة تغطي كتفيها بشال اسود اللون فبادرها يقول :

ـ ما الخبر يا اينيز ؟

فتمتمت المرأة : ـ صه يا سيدى . انني اكاد اموت رعبا خشية من ان يرانى احد . ان السيدة كانت تعلم

انك ستكون موجودا اليوم ، وهى قد راتك وانت تجتاز الدهليز وتريد ان تصعد اليها .

فقال رامون عابس الاسارير :

ـ كيف هذا ؟ ... هل السينوريتا هنا ؟

ـ نعم يا سيدي . ولكن السيد دى فارجاس يراقبها مراقبة شديدة ، وهو يصطحبها معه دائما عندما يأتى الى المجلس ، وتنتظره فى غرفة أعدها لها الدوق ألفا ووضعها تحت تصرفها .

وتقدمته اينيز فى ممر طويل وارتقت بضع درجات أفضت بهما الى ممر آخر صغير فى نهايته باب منخفض توقفت امامه قائلة :

ـ تفضل يا سيدي ... ان السينوريتا فى انتظارك .

دخل الشاب دون ان يطرق الباب ، وارتفعت فى آخر الغرفة صيحة دهشة وفرح ، وما هى الا لحظة حتى كان دون رامون يضم لينورا دى فارجاس بين ذراعيه وقال :

ـ لم اكن أعلم انك فى بروكسل ... كنت اعتقد انك ما تزالين فى سيجوفيا .

وافلتت الفتاة من بين ذراعيه وقالت وهى مبهورة الانفاس :

ـ رامون .. لعلك علمت بالنبأ يا رامون ؟

فاجاب فى برود وبدون انفعال :

ـ لقد اذاع الدوق ألفا النبأ رسميا . منذ متى وانت تعلمين هذا الأمر ؟

اجابت فى صوت مختنق :

ـ منذ ثلاثة ايام فقط . لقد ارسل ابى يستدعيني منذ شهر فابحرت مع الدوقة مدينا كويلى وبلغنا مدينة تيلسنج منذ اسبوع . اواه يا رامون ... ما كان

اسعدنى بالسفر فانى لم ارك منذ تسعة شهور .
ـ منى علمت بذلك النبأ اذن ؟
ـ منذ ثلاثة ايام ، عند بلوغنا بروكسل ، فقد ذهبت بى الدوقة الى ابى فقال لى ... انه استدعانى لان الحاكم العام يريد ان يزوجنى باحد رجال الفلاندر .
ـ الم يشر الى ذلك الامر قبل ذلك ؟
ـ ابدا ، فمنذ شهر كان لا يزال يحدثنى عنك فى رسائله ، ثم انه هو الذى حصل لك على منصب القيادة فى جيش دون فيدريكو .
ـ هو منصب يحسدنى عليه الكثيرون وقد قبلته على الفور ... وبدون تحذر .
ـ اعلم ذلك يا رامون . وكانت هذه البداية فقد اراد ابى ان يبعدك عنى وهو يتظاهر فى نفس الوقت بانه يشجع علاقتنا . لعله حسب اننى قد انساك بسهولة ، ولكنه لا يعرفنى حق المعرفة ، هل تعلم يا رامون انه منعنى حتى من مجرد التفكير فيك . ومنذ مجيىء وهو يراقبنى بدون انقطاع . وعندما ياتى لزيارة الدوق يرغمنى على مرافقته ويتركنى انا وايئيز فى هذه الغرفة كما لو كنا سجينتين .
فقال رامون فى صوت حزين :
ـ كل هذا يبدو كما لو كان حلما فظيعا .
ـ نعم . حلم فظيع . وكم من مرة ظننت فيها اننى ساصحو من نومى فاجد نفسى فى سيجوفيا . ولا ريب ان فى الامر سرا لا اعرفه . فان ابى لم يذكر لى شيئا ، وكل ما قاله لى هو اننى لا يجب ان افكر فيك بعد اليوم وان الدوق الفا قد قرر ان يزوجنى من ابن السيد فان ريك ، حاكم مدينة جنت ، وان الخطبة ستعلن غدا .. والباقى بعد ثمانية ايام . وقد بكيت وجثيت عند

تدمى ابى وتوسلت اليه الا يحطم حياتي وقلت له ان لافتراق عنك هو الموت نفسه . ولكنك تعرف ابي يا رامون فانه لم يتاثر بما ذرفت من دموع . ولم يقل ني انك ستكون فى بروكسل اليوم ولكن اينيز سمعت ذلك من احد خدم الدوق فارسلتها اليك تستدعيك فقل ني ما العمل يا رامون ... لا ينبغى لاحد أن يفرق بيننا .

وبدت كأنها على وشك الاغماء .. وحاول رامون أن يجعلها تتمالك وهو يصغى للأصوات التى تتناهى اليهما من الخارج . ولم يكن يحبها لشخصها ولكنه كان يحب فيها ثروتها .

ــ لا استطيع ان اقول لك شيئا الآن ياليونورا ، فاننى مازلت مذهولا من الضربة التى اصابنى بها القدر . دعينى افكر اولا فى الموقف ، وان اباك ليخطىء اذا اعتقد اننى ساتخلى عنك ... سوف افكر فى الأمر وفى اثناء ذلك يجب ان تتظاهرى بالموافقة على مايطلبه منك فلا يمكنك ان تتحدى اباك أو الدوق تحديا سافرا فانهما لايعرفان معنى الشفقة ولا الرحمة ، ولن يتردد أبوك عن شيء ليرغمك على ما يريد ، أما أنا فان الدوق ليضحى بى دون تردد لو علم اننى اقف حجر عثرة بينه وبين الخطة التى رسمها لتتزوجى من الرجل الذى يريد . والآن يجب ان انصرف ياحبيبتى قبل ان ينكشف امرنا .

فتوسلت اليه قائلة : ــ كلا يا رامون . لا تنصرف. لن استطيع العيش بدونك . أخشى الا اراك بعد اليوم .

فاجابها وصبره يكاد ينفد :

ــ حكمى عقلك يا حبيبتى . من الخطر لى أن ابقى.

سوف اراك فيما بعد . دعى اينيز تذهب مساء اليوم الى « برودويس » ... ساسلمها رسالة لك . وفى اثناء ذلك اكون قد التقيت بابيك ، ومن يدرى ؟ .. ربما يرق قلبه فليس له سواك فى الدنيا ولا اظنه يريد ان يحطم حياتك .

هزت راســـها فى ياس . ولكن لم تلبث ان لمعت عيناها ببريق الامل فقد كانت المسكينة تظن ان رامون يتألم مثلما تتألم هى ولم تشا ان يرى ياسها فتزيد بذلك من عذابه واستطاعت ان تكبت دموعها ، وضمها رامون الى صدره . كأنه يسره ان يتزوجها طبعا ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتحدى دى فارجاس او الدوق الفا ، فمعنى ذلك هو الموت المؤكد ، وكان دون رامون من الانانية بحيث لا يفكر الا فى نفسه . وهو اذا كان قد فقد لينورا الى الابد فقد بلغ منصبا ما كان ليبلغه بســـهولة .

وغادر لينورا بقلب خلى بعد ان طبع على شفتيها قبلة حاول ان يودعها كل مشاعره .

الفصل الثانى

الابتـــاع

ـ كلا يا اماه ... كلا ... لن اقبل أبدا .. اننى اوثر الموت على هذه الصفقة الشائنة .

كان لورنس فان ريك جالسا على مقعد منخفض امام النار وقد دفن ذقنه فى راحة يده . وسرت الرعشة فى أوصال أمه وغطت كتفيها بشال من الصوف وقالت فى صوت رقيق يدل على مبلغ ما تعانيه من عذاب والم .

ـ لورنس .. يجب ان تطيع ابـــاك ما دامت هذه هى رغبته .. ان الله وحده يعلم ما يكون من أمرنا لو انك رفضت .

فقال فى حـــدة :

ـ وماذا يمكنه ان يفعل أكثر من ان يقتلنى ؟

ـ وماذا يكون من أمرى أنا اذن ؟

ـ اواه يا أمى الحبيبة ... اليس من الأفضل ان تربنى بين احضان الموت بدلا من الاقتران بهذه المراة ؟ ... أجنبية ... عدوة .. ابنة طاغية اشد قسوة واستبدادا من الدوق الفا نفسه

وامسك فجاة اذ ارتفعت فى هذه اللحظة ضحكات واصوات غناء ووقع اقدام تتخللها صيحات امرأة فصاح وهو يندفع نحو الباب : ـ ما هــذا ؟

وتوسلت اليه امه قائلة :

ـ دع عنك يالورنس ... انهم الجنــود ، وهم يضايقون جان ... ان لدينا الآن ستة رجال منهـم والسر جنت وقائدهم .

اطلق الشاب ضحكة طويلة تدل على الالم وقال :

ـ ثمانية جنود من الاسبان فى بيت محافظ مدينة جنت ! أواه يا الهي .. الى متى الاحتمــال ؟ .. اننا نعرف ما وقع فى مونس وفى مالينى ولا نستطيع أن نفعل شيئا ... ان نرى ارض الوطن المحبوب تتدنس ومواطنينا ناكسى الرؤوس وأن نبقى عاجزين أمام كل هذا الظلم ! ثم هذا الاستبداد الجديد ... هذا الزواج المزرى .. رباه . هذا جبن لا ارضاه .

ـ ارجوك أن تصمت يالورنس فقد يسمعك أحد .

ـ ماذا تتوقعين من ابنة جان دى فارجاس يا اماه ؟ ... أنها تقطر حقدا وازدراء لأهالى البلاد المنخفضة. أنها كمواطنة اسبانية يسرها طبعا أن ترى الاسبان يخربون وطننا ويدمرون مدننا ويدوسون حرياتنا . أنها سوف تتجسس علينا هنا فى بيتنا وتراقب اقل حركة من حركاتنا وتحاول ان تفسد خططنا ثم تذهب وتطلع اباها على اسرارنا . ان مثل هذه المعيشة تكون جحيما على الأرض . الا تدركين ذلك يا أماه ؟

فاجابته فى حزن :

ـهذا صحيح يالورنس . ولكن ما العمل ؟

نهض لورنس ومسح عينيه وقد اخجله انه بكى ،

ولكن اسعده ان دموعه لم يرها احد غير امه . وقال منكرا :

ــ يجب ان افكر فى كل هذا ... مازال الوقت مبكرا ، فان ابى طلب الى ان اكون فى دار البلدية قبل الثامنة . ولكن كيف بلغ به الأمر الى حد ان يبيع ابنه وان يجعل منه مادة لمثل هذه الصفقة الشائنة ؟

قالت كليمانس فان ريك :

ــ ما كان فى مقدوره ان يفعل غير ذلك ، فقد اصدر اليه الدوق الفا الأمر باسم الملك ، وهددنا بديوان التفتيش لو اننا رفضنا ، وانت تعرف ماذا يعنى ذلك.

وارتفعت فى الطابق السفلى اصوات الضحك يتخللها الغناء . واستولى الغضب على لورنس وود لو يهبط فيلقن هؤلاء الجنود درسا لا ينسى ، ولمعت عيناه بريق الحقد الشديد وتقدم خطوة نحو الباب ولكن امه اعترضته وقالت فى هدوء :

ــ وما الفائدة يا بنى ؟ ... الم تعلم اننى اتألم اكثر منك ؟

وكان لورنس لا يرد كلمة لأمه فلم يسعه الا ان يرجع ، وراح يذرع أرض الغرفة الضيقة جيئة وذهابا وهو يحاول أن يجمع زمام نفسه . وسألته امه قائلة :

ــ هل رأيت مارك هذا الصباح ؟

ــ كلا يا اماه . وانت ؟

ــ بضع دقائق فقط ، وانت تعرف مارك . لقد كان امس فى والبورت ورأى دونا لينورا دى فارجاس تسير فى الطريق ، وهو يقول انها جميلة جدا وانك جد محظوظ .

هز لورنس كتفيه فى ازدراء فقالت :

ـــ لا تلمه يابنى فانه سيبقى دائما كما هو طائشا غير مكترث .

قال لورنس وهو يضحك ضحكة مرة :

ـــ انه لا يكترث لشيء حقا فيما عدا ملذاته .. وقد اجتمع امس بعض الضباط الاسبان فى حانة «النساجون الثلاثة» وبقى مارك معهم الى وقت متاخر من الليل يعاقرهم الخمر ويغنى ...

فقاطعته امه قائلة :

ـــ اعرف كل هذا يابنى . كفى حديثا عن مارك فهو ابن ابيه حقا ... اما انت فابنى انا ، اليس كذلك ؟

وجثا الشاب بجوارها وقبل يديها قائلا :

ـــ لا تزعجى نفسك يا اماه الحبيبة . سافكر فى كل هذا فى هدوء ولن افعل الا كل ما هو حق .

ـــ لا تفعل شيئا قبل استشارتى على الاقل .

ـــ يجب قبل كل شيء ان استشير ضميرى يا اماه ثم اتحدث بعد ذلك الى الامير ، فهو ايضا قد استرخص حياته بتحديه طغيان الدوق الفا واستبداده . اعلم انه لابد لى من توخى الحذر ، واننى لشديد الحذر كالأرنب العجوز ، ولكن ساعتنا قد دنت يا اماه فاننى أحس بذلك . لقد ردوا على آخر نداء لنا ووعدونا بما يقرب من الفى دينار ، وفى هذه المدينة بالذات ينتظر اكثر من مائتى رجل الاوامر للتقدم . نعم يا اماه الحبيبة ... سنحتفل قريبا بخلاصنا ... فما اجمل هذا وما اوقعه ... وفى مثل هذه اللحظة يريدون ان يملوا على ... كلا ، كلا والف مرة كلا . ان عزيمتى قد صحت . اننى لن انحنى الا امام الامير اورانج واقسم أننى لن اتزوج ابنة دى فارجاس ولن اسمح لأحد ان يقول اننى فتحت أبواب قصرنا لهذه المرأة الملعونة ...

ودعيني انصرف يا اماه فان مكاني بجوار أورانج .
وقبل امه مرة اخري ثم اسرع بالانصراف من غير ان يستمع الى نداء المراة المسكينة . وبعد قليل صعدت الى غرفة الشاب فلم تجده وانما وجدت رسالة منه الى ابيه ما كادت تقرؤها حتى ارسلت زفرة طويلة ووقعت مغشيا عليها . وبعد ساعة وجدتها جان في الغرفة تبكي وتصلي . وواستها الفتاة الباسلة بقدر ما استطاعت ثم عاونتها على الذهاب الى غرفتها .
وكانت الرسالة التى تركها الشاب لابيه تحتوى على هذه الكلمات .

« ابى » ابحث عن شخص غيرى ليلعق حذاء الطاغية الأسبانى . اما انا فانى لا استطيع ذلك . اننى ارفض الزواج بابنة فارجاس الخسيس » .
« ولما كنت لا استطيع ان اعصى لك امرا وابقى تحت سقف بيتك فى نفس الوقت فاننى راحل ولن أعود الا اذا طلبت منى ذلك » .

حدث كل هذا فى الساعات الاولى من الصباح ومر الوقت سراعا دون أن يعود لورنس وعاد المحافظ لكي يستبدل ثيابه لحضور الحفلة التى حددت الساعة الثامنة لها . ولم تغادر كليمانس فان ريك غرفتها محتجة بوعكة المت بها ، وكان يحدوها الامل فى أن يعدل ابنها الاكبر عن عزمه ويعود فجاة قبل الموعد المضروب .

ولكن الدقائق والساعات مرت ولم يعد لورنس ، وكانت تسمع فى الغرفة المجاورة صوت أقدام زوجها ؛ ورات انه لم يبق امامها الا ساعة او ساعتين على الاكثر وتواجه زوجها بالحقيقة واحست بدمهـا يتجمد فى شرايينها .

وسالت خادمتها جان تقول :

ــ هل ارتدى السيد مارك ثيابه يا جان ؟

ــ لقد عاد السـيد مارك منذ عشر دقائق فقـط يا سيدتى .

ــ قولى له اننى اريد ان اتحـدث معه فى اقرب وقت ممكن .

ــ حسنا يا سيدتى .

ــ هل اعددت العشاء للجنود ؟

ــ لقد تناولوا وجبة خفيفة قبل انصرافهم ياسيدتى. وسيعودون بعد ان تنتهى نوبتهم فى الساعة الحادية عشرة فى دار البلدية ، وسيتناولون عشاءهم عنـد عودتهم .

ــ وهل يتناول الكابتن رامون دى لينيا عشاءه معنا ؟

ــ انه لم يقل لى شيئا ياسيدتى .

ــ افعلى كما لو كان سيتناوله معنا وحاولى أن يرضيه ذلك .

ــ انه دائم الشكوى ياسيدتى ولا يرضيه اى شىء. ولا أدرى ماذا يريد . لقد اخذ يسب ويشتم خمس دقائق كاملة عندما علم انه لابد له من قضاء الليل هنا. لقد تعبت طوال الامس واليوم ايضا فى غسل ثيـابه وتنشية ياقته ، ومع ذلك لم يوجه لى كلمة شـكر واحدة .

كان صوت جان يرتجف لفرط الغضب . وتنهدت مدام فان ريك ولكنها لم تنطق بكلمة وتكومت فى مقعدها. وكان من ينظر اليها لا يصدق ابدا انها لم تبلغ الخمسين بعد . كانت قد تزوجت وهى لاتزال صغيرة جدا ، وكانت من اجمل فتيات جنت واكثرهن مرحا ولكن عينيها الآن فقدتا بريقهما وغاضت الابتسامة عن شفتيها كما لو كان يثقل عليها هم مقيم وعكس وجهها الذى كان يتلألأ نورا وضياء الخوف والقلق واليأس الشديد .

واقبل مارك فانحنى فوقها وطبع قبلة على جبينها الاملس الشاحب واجاب ردا على سؤالها .

ـ انه رؤى فى حانة سان جان قبيل الظهر ثم فى حانة الجرس الفضى بعد الظهر ولم يره احد يغادر المدينة. ولكن اذا كان يحرص على الا يجده احدا فلا فائدة من البحث عنه .

تنهدت كليمـــانس فان ريك وكادت تفلت من بين شفتيها كلمات عتاب مرير ولكنها تماسكت وقالت :

ـ هل رايت اباك ؟

ـ لم اره بعد .

ـ حدثه انت اذن فانى لا اجد من نفسى الجراة على ذلك . ان اباك كان يؤثرك دائما على لورنس وعلى ، واذا انت حدثته كان وقع الصدمة عليه أخف .

ـ يا الهى . الم تحدثيه بالامر بعد ؟ ... يجب أن يلتقى بالسيد دى فارجاس بعد ساعتين فقط .

فقالت فى لهجة تدعو الى الرثاء :

ـ لاتعتمد على فى ذلك يا مارك . كنت أرجو أن

يرجع لورنس عن قراره ويعود ... ما العمل ؟ ... ما العمل ؟ ...

قال مارك فى حدة :

ـ كان على لورنس ان يفكر فى ذلك قبل ان ياتى بمثل هذه الدعابة التى تدل على ذوق غير سليم .

ـ دعابة ... اتقول دعابة وانت ..

فقاطعها الشاب فى مرح :

ـ على رسلك يا اماه ... اننى استحق اللوم حقا لاننى لا اكترث لما يدور حولى ولكن الموقف لا يخلو من جانبه الهزلى ، فها هو ذا الشاب السعيد المختار يهرب من خطيبته ... واى خطيبة ؟ ... انها على قدر كبير من الجمال ، وقد هرب دون ان ينظر اليها نظرة اعجاب واحدة . اهذا حق ؟

واتت كليمانس فان ريك بحركة تدل على الاعياء وقالت :

ـ انك لن تفهم اخاك ابدا يا مارك ، وكذلك لن تفهم امك . انك تشبه اباك ولا يمكنك ان تفهمنا ، ففيم يهمك هذا الاستبداد الاسبانى البغيض ؟ انك لا تحس بثقله، واظن انه ينبغى ان احمد الله على ان جعلك لا تكترث بما يدور حولك والا لتألمت لالمك كما اتالم لألم ابنى الاكبر ، مسكين لورنس . ان الوطن بالنسبة له هو دين ثان ، وكم تالم المسكين فى كل مرة يرى اباه فيها يصبح الشريك الذليل للعدو ، ولا ريب انه يرسم فى ذهنه الخطط العديدة ليهزم الدوق الفا ودى فارجاس. انه ليفضل الموت على الزواج الذى يريدون ان يفرضوه عليه .

نظر مارك الى امه طويلا فرآها قد تغيرت تغييرا

محموسا فى هذه السنوات الاخيرة . وقال فى رقة ونعمة :

ـــ انك اسأت فهم كلماتى يا اماه . . . اننى لم اشك ابدا فى اخلاص اخى لورنس ولكننى اسلم طواعية بان الموقف جد خطير . ان الساعة قد تجاوزت السادسة وينبغى ان يذهب ابى الى البلدية فى الساعة الثامنة . . . يجب ان يعلم . . . والآن فورا . . ولكن ماذا نقول له ؟

ـــ لكى تخفف من وقع المصاب وتهدىء من غضبه ؟ . . . انك تعلم يا مارك ان اباك يعيش فى خوف دائم من الدوق الفا ، واظن انه لا يحجم عن التضحية بى وبلورنس ليفلت من انتقام هذا الوحش المستبد .

ـــ لاتنطقى بمثل هذه السفاسف يا اماه . ان ابى رجل ضعيف الشخصية لا شك فى ذلك ولكن اليست هذه حالنا جميعا ، انهم هزاوا بنا واذلونا وهددونا حتى حد اننا فقدنا الكثير من رجولتنا وكرامتنا .

فاحتجت امه قائلة :

ـــ لعل هذا حالك انت ولكنه ليس حال لورنس فهو لا يلعق احذية الاسبان . ان الاسبان يحقدون على الرجال امثال الامير وابنى لورنس ولكنهم يحترمونهم على الاقل .

ـــ هذا صحيح ، ولكنهم عند اول مناسبة يشنقونهم، أليس كذلك ؟

وقبل ان تنطق بكلمة اخرى غادرها مسرعا وذهب لملاقاة ابيه . وما كاد هذا يراه حتى بادره يسأل عن لورنس بطل الساعة :

ـــ اين هذا الشاب الجميل الذى سيغزو بعد قليل قلوبنا لينورا الفاتنة .

لم يرد مارك وانما اخذ اباه الى غرفة الطعام واعطاه كأسا كبيرا من النبيذ وقال له :

ـــ لقد غادر لورنس البيت يا أبى . وقد أقسم قبل ان ينصرف انه لن يتزوج لينورا دى فارجاس ابدا .

ارتج القول على شارل فان ريك واصفر لونه والقى بالكأس على المائدة وقال متلعثما :

ـــ انه الخراب يابنى ... خرابنا كله . لن يغفر فارجاس لنا أبدا وسوف يطاردنا بحقد قاتل ... فهذه اهانة علنية لابنته ... سوف يشنقنى الدوق وسوف يحرق أمك .

ونهض فجأة وسار وهو يترنح نحو الباب ، ولكن مارك سبقه فى وثبة واحدة واولى ظهره الى الباب فقال :

ـــ دعنى أمر يابنى ... يجب ان اتحدث الى أمك .

فأجابه مارك فى غير انفعال :

ـــ كلا يا ابت . ان امى مريضة ثم انها لن تستطيع شيئا . ابق معى ولندرس الموقف فى هدوء .

ـــ ليس هناك ماندرسه . لقد هلكنا وسوف نكون من الهالكين اذا بقينا هنا فلنجمع مالابد لنا منه ولنغادر البلاد فورا .

فقال مارك : ـــ انك قليل الحيلة يا أبى . وان من الممكن اصلاح ما افسده لورنس .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ الست انا هنا لاصلاح كل شىء ... هذا اذا شئت يا أبى .

ـــ انت يا مارك ؟

واذهلته المفاجاة فوقف هنيهة لا يستطيع النطق واخيرا تمتم يقول وكأنه يستيقظ من حلم .

— نعم ... قد يكون فى ذلك خلاصنا .
— اذا اردت الحق يا ابى فانى اعتقد ان هـــذه الاسبانية لن تدعنا فى سلام ابدا . بل على العكس من ذلك فان وجودها بيننــا سيكون خطـــرا دائما لأمى ولورنس اذا عاد . ولكن مادام الخطر يبدو لك عاجلا فلا بئس من ان احل محل مارك . لا يهمنى جمال خطيبة فى شىء ولا برغبنى اى شىء فى هذا الزواج ولكنى اخشى ان يفطن فارجاس الى الحقيقة .
— كلا ، كلا . انه لن يفطن الى شىء فأنت تشبه اخاك الى حد كبير ولم يلتق فارجاس بلورنس الا مرتين منذ اسبوعين عندما قدمته الى الدوق واليه . وقد حدث هذا ليلا وكانت الغرفة قليلة الضوء ثم انهم لم يلقوا بالا الينا ولم ادع لورنس باسمه امامهما . اما دونا لينورا فلم يسبق لها ان رات خطيبها .
فقال مارك : — اذا كان هناك اى خطر فلابد لنا من مواجهته على كل حال . والآن اذهب الى امى وطمئنها فان هذه المسالة جعلتها تبدو اكبر من سنها بعشر سنوات . اما انا فســاذهب لارتدى احسن ثيــابى .
— نعم يابنى ... اما هذا الشقى لورنس ...
— دعنا من لورنس الآن ، وانك تعلم فى اعماق نفسك ان زواجه بالاسبانية كارثة فقد يعشق زوجته ويعطيها من المعلومات ما يودى بنا . لعل من الخير لنا جميعا انه اختفى .

الفصل الثالث

الأســـياد

وقفت دونا لينورا دى فارجاس بجوار ابيها ، وكان هذا الأخير بصفته ممثلا للدوق الفا يستقبل المدعوين من الاسبان ومن اعيان جنت الذين كانوا ينظرون الى لينورا فى اعجاب كبير .

وعندما انتهى دى فارجاس من استقبال المدعوين تقدم المحافظ وطلب أن يسمح له بتقديم ابنه ، وتطلع الجميع برؤوسهم . وما كانت اشد دهشة اهالى جنت عندما راوا مارك فان ريك يتقـــدم مرتديا ثيابا من الحرير الارجــواني ويلف عنقـــه بشريط من الدانتلا الغالية ... كيف ؟ ... ايمكن هذا ؟ .. ذلك الشاب الطائش العربيد الذى لا نفع منه ؟ ... كيف يرضى به فارجاس القادر المقتدر زوجا لابنته ؟ ... وتعالت الهمسات ... ما الذى حدث ؟... لا ريب ان لورنس لم يقبل ان ينحنى امام رجل اسبانى ، ولم يجد مارك غضاضة فى ذلك . والقت لينورا الى الشاب نظرة جافة تنطق بعدم الاكتراث عندما تقدم وانحنى امام ابيها وبعض الضباط .

وقال احد الاسبان يخاطب المحافظ :

ـــ اهذا ابنك الاكبر ايها السيد ؟

فاجابه المحافظ بدون ان يضطرب :
— ان ولدى توأمان ... وهذا ابنى مارك .
وتحول فارجاس الى زميله وقال :
— ايها السيد دلريو ... اتشرف بأن اقدم لك السيد
رك فان ريك ، ابن صديق مخلص للكنا .
ثم استأنف حديثه مع المحافظ تاركا اليريك دلريو
يتبادل اطراف الحديث مع مارك .

واحس جميع الموجودين فى الساحة الفسيحة بان
الحفل يخفى سرا لا يدركونه . ووقفت لينورا دى
فارجاس مطبقة الشفتين شاحبة الوجه . وتقدم ابوها
واخيرا يتبعه مارك فان ريك . اطبق السكون على
المكان . ورفعت لينورا الى ابيها نظرة كلها رجاء ،
لكن الرجل واجهها فى صرامة وقسوة فلم يسعها الا
السكون وهى تغالب دموعها وامتلأت قلوب السيدات
عطفا وشفقة عليها .
وتمت الخطبة بين لينورا دى فارجاس ومارك فان
ريك طبقا لتقاليد البلاد المنخفضة فى ذلك الوقت فقد
طلب السيد شارل فان ريك من السيد فارجاس
مصافحته قائلا :

— سيدى ... اننى اطلب يد ابنتك لابنى مارك .
فقال الاسبانى فى صوت مهيب :
— قبل ان اقبل طلبك هذا ايها السيد يجب ان
اعرف اذا كان ، ابنك ينتمى الى طبقة الاشراف واذا كان
لديه ما يستطيع ان ينفق منه ليعيش وابنتى عيشة
طيبة .
فاجاب المحافظ : — ان ابنى مارك يملك عشرة
آلاف جنيه ذهبا واثنى عشر جوادا ونصف حصة من

اسطول تجارى املكه وينقل منتجاتنا الزراعيـ
والحريرية الى موانىء فرنسا وايطاليا وانجلترا
وفوق ذلك فسوف اشترى له بعد ستة شهور م
الزواج قصرا فى ضاحية سان بانون ليعيش فيه وزوج
عيشة تليق بمركزه .
وقال فارجاس : — ان ابنتى تملك خمسة آلا
قطعة ذهبية ثم انها تتمتع باسم لا يضارعه فى العظم
غير اسم الحاكم العام نفسه ، وقد قبلت رجا
ورضيت بابنك زوجا لابنتى .
وتقدم دون جونزالو دى براكو مونت واعطاه سي
مجردا وتبعة ومعطفا ، فوضع فارجاس القبعة فو
حد السيف ثم امسكه راسيا وعلق الخاتم على حل
بمقبض السيف ، ثم تقدم الى مارك واعطاه السي
والمعطف وقطعة فضية من النقود وقال :
— اعهد اليك بصيانة ابنتى بهذه الشمارات ، انت
كنت حارسها المخلص فى الماضى واريد ان تكون حارس
وسندها منذ الآن وان تحرص على املاكها وتستثمر
فى امانة وشرف .
وقال مارك : — اننى اقبل ان اصون ابنتك وا
اكون سندا لها وان استثمر اموالها فى امانة وشرف
وهكذا انتهت الخطبة ، وتحول السيد دى فارجا
الى ابنته وقال :
— لينورا ... اقدم اليك خطيبك مارك فان ر
فاعطه يدك .
أطاعته الفتاة . وانحنى مارك انحناءة خفيفة و
الانامل الصغيرة البيضاء التى امتدت اليه . وقال د
فارجاس يخاطب الشاب .
— يسرنى الآن ان انهى اليك ان ملكنا المحبوب

يسرني ان اقدم اليك تهانيه ، كما يسرني ان افضى اليك بأن الحاكم العام يريد ان يتم الزواج فى اقرب وقت ، وقد حدد مثل هذا اليوم بعد اسبوع لذلك ، وهو يوافق عيد القديسة فيكتوار ، وهذه مصادفة سعيدة فسوف يكون زواجكما مباركا .

وقال الشاب الذى كان يحاول اثناء هذا الحديث ان تلتقي عيناه بعيني لينورا : ــ حسنا ياسيدى .

والحق ان اى شاب مكانه كان جديرا بان ينزعج من مثل هذا البرود من خطيبته وما من شك فى ان دونس فان ريك لو كان مكانه فى هذه اللحظة لوجه اليها ملاحظة جارحة ولكن مارك كان من طينة اخرى ، وقد كان جمال لينورا قد سبى قلبه فى البداية فان البرود والجفاء اللذين رآهما منها جعلاه يتغلب على شعوره وينظر ساخرا الى تلك التى ستكون زوجته .

ولم يلبث المدعوون أن تفرقوا جماعات ووجدت لينورا نفسها وحدها اخيرا ، وتملكها يأس وأحست بعينيها تغرورقان بالدموع ، وودت لو أسرع زوجها المنتظر اليها فى هذه اللحظة ولكن مارك فان ريك كان قد ابتعد . ورأت شابا يتقدم اليها ماكادت تراه حتى انبسطت أساريرها وهتفت فى انفعال :

ــ رامون . . . لم اكن أعلم انك هنا .

فأجابها : ــ اننى هنا منذ أمس ، فقد عينني صاحب الفخامة قائدا للحامية .

ــ واين تقيم ؟

ــ عند آل ريك الملاعين . . . اوه ، ليست لى حيلة فى ذلك فقد أعد الأمر قبل قدومى . اننى لم استطع ان اراك ياحبيبتى فقد اضطررت الى مغادرة بروكسل فجأة ، ولا يمكن ان تعلمى مبلغ سعادتى عندما علمت

اننى سارك الليلة .
وامسك بيدها ورفعها الى شفتيه فقالت مسرعة :
ــ حذار يا رامون ، فان ابى هنا .
فاحتد الشاب قائلا :
ــ لست مهتما به ؛ فانه باعك الى رجل آخر .
اما حبى ... اما حبنا فلا يستطيع ان يقتله .
ــ لا تقل هذا يارامون ... حاول ان تساعدنى لكى احتمل تضحيتي ؛ فقد تألمت بما فيه الكفاية .
ــ اعلم هذا يالينورا ، ولكنه أمر فظيع . عندما اتيت امس الى هذه المدينــة الملعونة واشاروا على بالاقامة فى بيت المحافظ لا ادرى ما الذى منعنى من القضاء على هذه الاسرة كلها . اننى امقتهم كلهم مقتا يفزعنى أنا نفسى ... امقت اباك منذ ان فرقنا وامقت الدوق الفا ... ويخيل لى اننى امقت ملكنا نفسه ... ان دور الجاسوسة الذى يريد منــك أن تقومى به لا يشرفك يالينورا .
ــ هذا صحيح ، وانه ليحز فى نفسى فاننى مقدمة على عمل سافل غير حميد ، واننى سأتزوج رجلا لن استطيع أن احبه أبدا ... رجل ينتمى الى اناس معادين لاسبانيا ويمقت كل الذين احبهم واجلهم ... ملكى ووطنى ومؤسساته ونظمه ...
ــ لا تنزعجى يالينورا فان هذا الرجل الذى اخذك منى لابد ان يختفى بأى ثمن ... يجب أن يموت ، واقسم لك ان سوف يموت قبل ان يمر الحول .
وقاطعته ضحكة عالية وصوت متهكم يقول :
ــ يا الهى ... اننى جئت فى الوقت المناسب واشكر الله على اننى سمعت الحكم باعدامى .
انتصب دون رامون واقفا ويده على مقبض سيفه .

وجاءت وقفته أمام لينورا ، وجها لوجه امام الدخيل الذى تهجم عليهما وقال :

ـــ السيد فان ريك ؟

فأجابه مارك :

ـــ فى خدمتك ايها السيد .

ـــ كنت تتجسس علينا اذن ، انا ودونا لينورا ؟

ـــ ابدا ايها السيد . ان الصدفة هى التى حملتنى هنا فى نفس الوقت الذى كنت تنطق فيه بحكم الاعدام على .

فصاح دون رامون :

ـــ يالك من وقح !

قال مارك دون أن يفقد مرحه :

ـــ كلا أيها السيد ، انما اردت فقط ان احذر زوجتى المقبلة بأن السيد دى فارجاس يرميها بنظرات غاضبة، وخطر لى أن احميها منه وأن ابقى بصحبتها بضع لحظات ، ولا اظنك تنكر على هذا الحق ايها السيد .

ـــ أى حق ايها الوغد ؟

ـــ الحق الذى منحتنى هى نفسها اياه . واذا هى سألتنى الانصراف فسوف انصرف .

فصاح دون رامون وقد خرج عن طوره :

ـــ اغرب عنا اذن ايها السفيه .

ولكن دونا لينورا تدخلت فقالت فى لهجة آمرة :

ـــ اسكت يا رامون . ليس من الكرامة ان تنطق بما نطقت به . ان السيد فان ريك على حق ، واذا كان يريد أن يتحدث الى فاننى تحت تصرفه .

ـــ لن يتم له هذا الا اذا رضى أن يلتقى بى خلف منزله . احضر شهودك معك أيها الوقح فاننى سأتنازل وابارزك .

فقال مارك من غير ان يبدو عليه اى اضطراب :
ــ لا اظنك جادا فيما تقول ايها السيد فلا دراية لى بالسيف ، وانه ليناسبني ان انازلك بالأيدى اذا اردت.
وكانت الانظار قد بدات تتجه الى الشابين ، وقد ادرك الحضور أن شجارا يدور بينهما وكان دي مارجاس يراقب ما يحدث منذ لحظات وهو فى شدة الغضب ، وادرك ان فضيحة على وشك الانفجار وأن القائد لن يخرج منها منتصرا ، وكان يقف الى جواره رجل يرتدى ثيابا تدل على أنه ينتمى الى ديوان التفتيش فاسر اليه ببضع كلمات اسرع الرجل على أثرها فاجتاز القاعة وهو يوسع الخطا ولمس كتف رامون فى نفس اللحظة التى هم فيها هذا الاخير بان يرفع يده ليلقى بقفازه فى وجه غريمه ، وقال له بضع كلمات فى صوت خافت ثم تحول عنه وعاد من حيث اتى .
وكان اثر هذا التدخل سريعا وله وقع كوقع الصاعقة فقد بدا دون رامون كالمشدوه وترك القفاز يقع من يده وعض على شفته حتى دميت . وانحني أمام دونا لينورا ثم اختفى دون ان ينطق بكلمة واحدة .
وبقيت دونا لينورا بضع دقائق معتمدة بظهرها على حاجز النافذة وقد قست نظراتها وبدت كانها نسيت وجود مارك . واعتمد هذا الاخير بظهره على حاجز النافذة هو الآخر وراح يتابع المدعوين ، وكانت الغالبية الكبرى منهم قد غطوا وجوههم باقنعة خفيفة من المخمل طبقا للعادات التى كانت سائدة فى ذلك العهد ، وراح بعضهم يرقص بينما وقف البعض الاخر جماعات يتبادلون أطراف الحديث . ووقف مارك مكانه يحاول أن يجد موضوعا يصلح للحديث مع خطيبته ، وهم بأن يتكلم عندما دنا منه شاب نظر مارك اليه فى هدوء ثم

اولى ظهره لليونورا حتى لاتسمع حديثه وقال :
ــ لورنس ... كيف دخلت ؟
ــ ذكرت اسمى للحراس فتركونى ادخل بكل سهولة .
ــ هذا صحيح ، فان احدا لم يعلم بما حدث .
وساله لورنس : ــ هل مر كل شىء على مايرام ؟
ــ نعم . وكنت على وشك مغازلة خطيبتى حين قدمت .
ــ لن احول بينك وبين ما تريد .
ــ ولكن هل عدت الى المنزل ؟
ــ نعم . اردت ان اواسى امى . وقد ذكرت لى ما وقع منك . وجاء ابى وانا معها . ولم احاول ان اتجنبه . انه غاضب منى طبعا ولكنى اعتقد انه فى قرارة نفسه راض عن سير الامور . اننى ادين لك بالشىء الكثير ... ما اجمل خطيبتك يا مارك !
ضحك مارك ضحكة ساخرة وقال :
ــ انها جميلة جدا ولكن فات الوقت لكى نتراجع يا عزيزى ، فلا يمكننى ان اردها لك فهى الآن لى وسوف احتفظ بها .
ــ اوه ، لا تخش شيئا يا عزيزى مارك . انما اتيت بدافع الفضول .
وبعد انصراف لورنس عقب هذا الحديث القصير تحول مارك الى خطيبته ، وكانت جالسة على حافة النافذة يضىء القمر وجهها الجميل وتنعكس انوار القاعة على ثوبها الحريرى الابيض ... وخاطبها قائلا :
ــ هل يمكننى ان اقطع تاملاتك يا آنسة او تؤثرين ان انصرف .

فاجابت فى برود :
ـ اننى تحت تصرفك التام فان لك كل الحق كما ذكرت لدون رامون دى لينيا فى ان ترافقنى اذا شئت .

ـ لعلنى اسأت التعبير يا آنسة ، فاننى لم اشأ ابدا ان افرض عليك صحبتى ، ولكن ما دام قد كتب لنا أن نعيش معا فترة كبيرة من مستقبلنا فانه يبدو لي من الاوفق أن نتوافق دون ابطاء .
ـ وهل تظن أن هذا التوافق يمكن أن يتم فى صالة رقص ؟

ـ ولم لا ؟
فقالت فى حدة :
ـ لك الحق . فان ما يمكن ان يقال قليل ، وليس هناك ما يمنع من ان نتبادله فى صالة رقص . ان كلا منا لا يعرف عن الآخر الا النذر اليسير ، وحتى اذا كنت لا اروق لك ..

ـ لا تروقين لى يا آنسة ؟ ... دعينى اقول لك العكس : اننى اعتبر جمالك هبة اخرى من القدر .
رفعت راسها وقالت :
ـ هبة اخرى ؟

ـ نعم ، هبة اخرى ، فان نظرة واحـــدة اليك كانت كفيلة بأن أعرف ان كل فضائل المرأة قد اجتمعت فيك . ان نساء المجتمع البارزات هن فى الغـــالب دميمات ، والجميلات منهن من الحماقة بحيث يحسد الرجل نفسه اذا حبته الظروف بزوجة اجتمع لهـــا الذكاء والجمال ورقة الطباع .
ـ ان اطنابك لى ليؤثر فى لو تأكدت من صـــدقه

ايها السيد . وان ثناءك على جمالى فيه تملق كبير ، اما رقة طباعي فأنت لم تعرفني بعد .

ـ انك على خطأ فى هذا يا آنسة . الم تقبلى الزواج بى ضد رغبتك اذعانا لأبيك وللدوق الفا ؟ .. الم تقبلى ذلك بدافع الاخلاص للملك وملنك وعقيدتك ؟ ... ان امرأة لها مثل هذه الصفات تكون مخلصة وطيعة لزوجها .

ـ سأحاول ان اكون كذلك ايها السيد .

ـ اشكرك يا آنسة ، وان كنت لا اخفى عنك اننى انتظر من زوجة فى مثل جمالك اكثر من الاخلاص والطاعة .

ـ سيكون لك الأولوية فى افكارى بعد مليكى وعقيدتى أيها السيد .

ـ وهل تكون لى الأولوية فى قلبك يا آنسة ؟

ـ لا يمكن لأحد ان يتحكم فى قلبه ايها السيد .

تنهد مارك وقال :

ـ سوف اعتبر نفسى راضيا اذا انت لم تمنحى هذا القلب لاحد غيرى .

احتدت الفتاة عندئذ وصاحت :

ـ راض .. هذه هى الكلمة التى كنت اتوقعها منك ايها السيد . انه ليرضيك اذن ان تتزوج امرأة لم يسبق لك ان رأيتها من قبل ، اشتراها ابوك باسمك لأن ذلك يخدم بعض الاغراض السياسيةالتى لا تعرف عنها شيئا . لو ان الامر كان يتعلق بشراء جواد فانك ما كنت لتشتريه وانت مطبق العينين ، بل كنت تستعلم عنه اولا وتجادل وتساوم . اما والامر يتعلق بامرأة فماذا يهمك من افكارها ومشاعرها ، وفيم يهمك ان كانت حانية ام باردة ،

لطيفة او شرسة الطباع ، رقيقة او قاسية . كل ما يهمك هو انها امراة وانها لم تمنح قلبها لاحد غيرك لان هذا يجرح كبرياءك . حسنا . لست الا امراة ضعيفة ومصيرى هو ان اطيع اوامر ابي اولا ثم زوجي ثانيا ، وبهذا انا راضية . ولكن انت ؟ ... من الذى ارغمك على الطاعة ؟ ... لا احد ... انهم حدثوك عن هذا الزواج منذ شهر فى سيجوفيا ، وهى ليست فى آخر العالم فهل فكرت لحظة واحدة فى ان تذهب اليها للتعرف بى ؟ كلا . وانا هنا منذ ما يقرب من اسبوع فماذا فعلت لكى ترانى ؟ لا شىء ... وتاتى الآن فتكلمنى عن قلبى . لا تضيع وقتك ايها السيد واعلم هذا ... ان الصفقة التى عقدها ابوانا لا تتعلق الا بجسدى وهو لك ، اما قلبا وروحا فانا ملك ابن خالى دون رامون دى لينيا .

اصغى مارك الى ثورة الفتاة فى هدوء وهو يحاول ان يخفيها عن العيان بقامته المديدة العريضة لكى لا يلحظ احد ما يدور بينهما . وكان السيد دى فارجاس لا يزال موجودا بالقاعة وخشى ان يتدخل بينهما ولكن لينورا لم تلبث ان تمالكت نفسها وعاد الهدوء الى ملامحها فقال لها فى رقة :

ـــ كان من الافضل لى ولك الا تنطقى باسم دون رامون دى لينيا ، وانه ليؤلمنى كل الالم ان ارى ان ارادة ابيك قد فرضت عليك مثل هذه القيود الثقيلة ، وكنت أود ان امنحك حريتك ولكنى اخشى عليك وعلى نفسي من غضب ابيك والدوق الفا . وبما ان هذا هو الموقف افليس من الاوفق ان نعيش صديقين بدلا من ان نكون عدوين لدودين .

فاجابته فى هدوء :

ــ ان قلبى لا يكن لك اى عــداء ايها السيد ؛ وارجو ان تصفح عنى اذ نسيت نفسى وحدثتك عن دون رامون ، وصدقنى اننى لم افعل هذا بعد الآن . ولكنك لا تحبنى ولا يمكن ان تحبنى لاننى اسبانية وانت من اهالى البلاد المنخفضة . انك تطيع اباك كما اطيع انا ابى وقد اتحدت يدانا ولكن قلبينا لن يلتقيا ابدا . لو انك لم تكن عديم الاحساس ، ولو انك حاولت التودد الى فربما كنت استطيع ان اعاملك كصديق وان ارى فيك شيئا آخر غير اداة فى خدمة وطنى ... ولكن هل تتكرم فننهى هذا الحديث ؟ .. لقد تفاقم الأمر بيننا وكان الأجدر بنا ان نتفاهم .

فسألها مارك فى جفاء :

ــ حسنا ... متى يمكننى ان اراك ؟

ــ كل يوم حتى يوم الزواج ايها السيد ... برفقة خالتى ودونا اينز دى سالجاد وطبقا لعاداتنا .

وانحنى الشاب امامها فى جفاء ظاهر ثم ابتعــد عنها واختلط بين جموع المدعوين .

وبقيت دونا لينــورا وحدها فانتحت مكانا قصيا بعيدا عن اعين الفضوليين وجففت دموعها بمنديلها . واجفلت فجاة فقد وقف بجوارها رجل يضع على وجهه قناعا وانحنى امامها وامسك يدها وغمرها بقبلاته . ودهشت لينورا وتملكها الفزع فى نفس الوقت ولم تدر ماذا تفعل فقد استطابت هذا التودد من رجل غريب عنها بعد الاساءة البالغة التى لحقت بها من خطيبهــا وتمتمت تقول فى ذعر :

ــ سيدى .. ارجوك .. دعنى .. انصرف .

ولكن الشاب رفع عينيه اليها فاذا بهما مغرورقتين بالدموع وقال :

— سانصرف يا سيدتى ولكن دعينى اقول لك اولا اننى تاثرت بالغ التاثر لاشجانك وجمالك ، وانه لا رغبة لى الا ان اكون خادمك المطيع .

فقالت مرتبكة : ولكن من أنت ؟

— اننى اليوم رجل غريب ... ولكننى ساكون اخا لك عن قريب .

— اخ ... اذن فانت ...

— لورنس فان ريك ، خادمك حتى الموت .

واذ رأى الفتاة تنظر اليه حائرة مترددة استطرد يقول :

— لقد كنت اقف على مقربة خلف هذا الستار وسمعت كل ما قيل بينكما انت واخى . ان كل كلمة من كلماتك ملأتنى اعجابا ورثاء لك . لقد جئت لكي اراك لانني قبل ان اعرف كنت اعتبرك عدوة وجاسوسة ، فاغفرى لى يا سيدتى لاننى حكمت عليك هذا الحكم الخاطىء اما الآن وقد رايتك فانى اشعر أننى لن استطيع مهما طال بى الأجل اصلاح الخطا الذى لحقك منى معنويا والذى لا يستطيع ان يعلم مداه غيرى . واعلمى على الاقل ان السعادة قد بسطت لى يديها ذات يوم ولكننى تحولت عنها كالاعمى . واذا داخلك بى ولو قليل من الشفقة والرثاء ، واذا تكرمت ومنحتنى ثقتك فسوف تجدين الى جوارك صديقا مخلصا يدفع عنك المحن والملمات .

اجابته دونا لينورا وقد هزتها هذه الاعترافات غير المتوقعة :

— اشكرك يا سيدى فاننى لم اسمع مثل هذه

الكلمات الرقيقة منذ ان جئت الى البلاد المنخفضة وارجو الا احتاج الى من يدفع عنى الأذى لان اخاك مارك سوف يحمينا ، اذا اقتضت الظروف . ولكنى اقبل صداقتك عن طيب خاطر ، وانه لمن دواعى سرورى ان ارى الى جوارى صديقا مخلصا . ومع ذلك فيبدو لى ان مخاوفك لا تستند على اساس ، فان اسرتك لم تسىء الى ، ولو ان امك عاملتنى بشىء من الطيبة التى تبديها انت نحوى فانى اشكر الله على ذلك .

فقال لورنس فان ريك بحرارة : ليباركك الله .

واخذ يدها مرة اخرى ورفعها الى شفتيه ولكنها لم تلبث ان سحبتها فى رقة فلم يسعه الا ان يطلقها . آه . هذه اليد الرقيقة البضة ... انه ليتنازل عن الكثير لكى يحتفظ بها بين يديه . شد ما يلعن الآن حدته وغضبه الاعمى اللذين طغيا على قلبه وجعلاه يزدرى خطيبة بمثل هذا الجمال ومثل هذا النبل . واحس بالمرارة تطغى على قلبه اذ ظفر بها اخوه دونه ولكن لم يكن يسعه ان يفعل شيئا الآن ورأى من الصواب ان ينصرف قبل ان تتجه اليه الانظار فقال:

ــ اذا احتجت الى مساعدتى فى اى يوم من الايام فابعثى الى بهذا الخاتم الذى فى يدك ، ومهما كانت الشقة ، ومهما بعد المزار فسوف اسرع اليك ، واقسم لك على هذا .

* * *

الفصل الرابع

العدالة

كان دون رامون دى لينيا من اواخر الذين غادروا دار البلدية لأنه كان يتعين عليه أن يبقى حتى انصراف جميع الضباط الأسبان . كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما بلغ قصر المحافظ ، وكانت الانوار مطفأة فى جميع الغرف ماعدا غرفة فى الطابق الارضى كان الضوء ينبعث من نافذتها . ولم تكن الستائر مسدلة فرأى رامون المحافظ وولديه جالسين أمام مائدة يتناولون آخر كاس من النبيذ ـ واذا رأى ذلك لم يستطع ان يملك نفسه وطغى عليه حقده على مارك فان ريك وافلت من بين شفتيه سيل من السباب واخذ يضرب الباب بحذائه فى عنف قائلا :

ـ افتحوا أيها الأوغاد .. منذ متى توصدون الأبواب فى وجه جنود الملك .

ولم يكن قد فرغ من سبابه عندما سمع بالداخل اصواتا تقترب ثم صوت المزلاج وهو يرفع من مكانه فدفع الباب بقدمه فى عنف فانفتح مرة واحدة ، وكاد بيير الخادم المسكين يقع من هول الصدمة .

وصاح دون رامون : عليك اللعنة . تعال هنا ايها الوغد واخلع حذائى .

وصدع الخادم المسكين بالأمر وهو يتلوى من الالم. وسأله الاسبانى :
— اين سيدك ؟
— فى غرفة الطعام ايها السيد ؟
— ورجالى ؟
— ذهبوا الى الحانة المواجهة بعد ان تناولوا عشاءهم منذ ساعة ، ومازالوا بها واعتقد انهم يقضون وقتا طيبا .

وفى هذه اللحظة ، وكأنما ارادت الصدفة أن تؤيد اقوال الخادم تناهت الى سمع الدوق رامون صيحات جنوده وهم يصيحون وينفجرون بالضحكات التى تدل على مبلغ افراطهم فى الشراب . واطلق الشاب سبة اخرى ، فان الحاكم العام اصدر امره اخيرا بألا يفرط الجنود فى الشراب وان يراعوا النظام . وكانت حانة « النساجون الثلاثة » تقع أمام قصر المحافظ ، وادرك الشاب الخطر الذى يتعرض له فان هذا الأخير يتمتع حاليا بالحظوة لدى الحاكم العام ، وقد يشكو الأمر اليه ، ولهذا نهض واقفا وفى نيته الاسراع الى الحانة لتعنيف رجاله وزجرهم . ولكن شاءت الصدفة ان يفتح المحافظ باب غرفة الطعام فى هذه اللحظة ، وان يتقدم فى البهو واذ راى الضابط واقفا عابس الاسارير دعاه مجاملا للانضمام اليه والى ولديه ليشرب معهم كاسا من النبيذ .

قبل دون رامون الدعوة. كان لايزال يغلى بالغضب ويود لو ان يجد نفسه وجها لوجه مع غريمه . واسرع الى غرفة الطعام وفى نيته ان يرد لمارك فان ريك الاهانة التى لحقته امام لينورا .

حيا مارك ولورنس ضيفهما فى رقة وادب . وقدم اليه الاول كاسا من النبيذ دفعها الاسبانى بعيدا عنه فى غلظة بحيث انسكب النبيذ على الارض ولوث بعضه ثياب مارك . واحتدم لورنس غضبا وتطاير الشرر من عينيه . ولكن مارك تظاهر بأن الاهانة لم توجه اليه واحتفظ برباطة جاشه وعدم اكتراثه واظهر تسامحا نحو ضيفه . وقال لورنس بعد ان تمالك نفسه :

ـ كنا نريد ان نطلب منك ايها السيد ان تتدخل مع جنودك فى الحانة المواجهة ، فان أمى مريضة والفوضاء التى تصدر عنهم تحول بينها وبين النوم.

فقال دون رامون فى ترفع :

ـ انهم لن يبقوا هناك طويلا . ولكنى اعتقد ان لهم الحق فى قضاء وقت طيب بعد عملهم الشاق . ولتتجمل مدام دى ريك بالصبر فسينتهى كل شيء بعد ساعة على الاكثر ويمكنها ان تعوض هذه الساعة فتظل راقدة حتى الظهر .

ادرك المحافظ ان الأمور ستسير من سيء الى اسوأ فتدخل قائلا :

ـ لا مانع عندنا من ان يقضى جنودك اطيب الاوقات كما يحلو لهم ، وفى مثل هذا الوقت المتاخر من الليل ولكن ...

فصاح الاسبانى فى وقاحة مقصودة :

ـ ولكن ماذا ؟ ... وفيم تدخلك ايها السيد ؟

وقف المحافظ فاغرا فمه لا يستطيع النطق ، وتدخل مارك فقال دون ان يفارقه هدوءه .

ـ ولكن هناك امرأتين تقومان على خدمتهم فى هذه الساعة ... فتاتان القى القبض على ابيهما صباح اليوم بالذات لانه حضر اجتماعا فى الخلاء خارج

المدينة ... فتاتان لا حول لهما ولا قوة ايها السـيد وهذا هو السبب فى اننا نتوسل اليك ان تضع حـدا لعربدة جنودك .

القى دون رامون راسه الى الخلف وقال متهكما :

ــ لا اظنك جادا فى قولك هذا ايها السيد ... اذن فقد نصبت من نفسك مدافعا ومحاميا عن الثوار ؟ .. الا تعلم أن من يشترك فى اى اجتماع ثورى يحـكم عليه بالاعدام فورا ؟

فقال لورنس فى غضب مكبوت :

ــ اننا انما نعنى فتاتين لا حول لهما ولا قوة ولا تملكان الدفاع عن نفسيهما .

ولكن الاسبانى رد عليه فى سخرية :

ــ يخيل لى أن الغيرة قد اعمتكما لان جنـودى يغازلون فتاتين جميلتين . سأسرع اليهمـا بدورى لاحظى بنصيبى معهما .

ونهض وتثاءب فى بطء ثم تقدم نحو الباب . ووثب لورنس واقفا واندفع نحو الاسبانى يريد الاشـتباك معه غير أن مارك اعترض طريقه وامسكه من كتفيه فى قوة وارغمه على الجلوس .

ووقف دون رامون لحظة ينقل نظره بين الرجال الثلاثة فى وقاحة ، واخيرا قال :

ــ لم ينفعك غضبك يا صـديقى . انكم معشر اهالى البلاد المنخفضة لم تدركوا ، بعد نصف قرن ، ان من الحماقة ومن التهور تهديد شريف اسبانى ، سواء بالاشارة او بالكلام . كنت أنوى ان اخف الى نجدة الفتاتين ، ولكننى الآن ، وبعـد أن رفعت يدك القذرة فى وجهى فلن افعل شيئا لنجدتهمـا ، بل سأذهب رأسا للحاق برجالى وسوف يؤجج وجودى

معهم سعيرهم . ومن حسن حظك ان اباك معروف بانه خادم مخلص للملك والكنيسة ولولا ذلك ... ولكن يكفيك ذلك الدرس ... اما انت يا سيدى المحافظ فان من الحكمة ان تعلم ولديك احترام رؤسائهما وطاعتهم .

وغادر البيت فى طريقه الى الحانة فى حين نهض لورنس ومر بظهر يده فوق عينيه وهو يقول :

ــ هل تخلى الله عنا حتى يسمح لمثل هذه الوحوش الضارية أن تعيش فوق الأرض ؟

وبقى بضع لحظات شارد العينين يرسم بأصابعه صورا خيالية فوق المائدة فى انفعال ثم اخذته رجفة وحيا اباه واخاه وغادر الغرفة .

وقال المحافظ يخاطب مارك :

ــ لا تدع اخاك يغيب عن عينيك يا مارك فاننى اخشى ان يرتكب حماقة .

اما دون رامون فقد بلغ الحانة وهو غارق فى افكاره. كانت حانة « النساجون الثلاثة » من اكبر واشهر حانات جنت . وكانت هذه فرصة طيبة ليلحق اهانة لا مثيل لها بالمحافظ وولديه وليحط من منزلتهم لدى اهالى المدينة . واعجبته هذه الخطة وصمم على تنفيذها ضاربا عرض الحائط باوامر الدوق الفا التى اصدرها منذ أيام قلائل بعدم احداث اى شغب بالمدينة .

ولم يندم رامون وهو يدخل الحانة الا لشىء واحد هو ان مارك ولورنس فان ريك لا يرافقانه . وما ان القى نظرة واحدة على جنوده حتى ادرك انهم فى حالة كبيرة من السكر والثمالة . كان بعضهم جالسا

وقد باعد ما بين ساقيه وامسك كل منهم بالآخر وراحوا يتمايلون بينما وقف البعض الآخر يرفع عقيرته بالغناء وقد امسك كل منهم كأسا فارغا فى يده . وصاح السرجنت يقول :

ــ الينا بالخمر ايتها العاهرتان .

ففى آخر الصالة وقفت فتاتان ، تمسك كل منهما بيد الأخرى ، كما لو كانت كل منهما تحاول دفع الاذى عن الاخرى . وكانت كبراهما فى الخامسة والعشرين من عمرها . اما الاخرى فلم تتجاوز العشرين بعد .

وما أن راى الجنود رئيسهم حتى وقفوا وهم يترنحون ، ووقف السرجنت بجوارهم فى انتظار التعنيف الشديد الذى اعتقد انه سيتعرض له .ولكن دون رامون تجاوزه دون أن ينظر اليه وخاطب الفتاتين قائلا :

ــ اريد نبيذا معتقا وغرفة خاصة .

فقالت الكبرى فى صوت يكاد لا يسمع :

ــ حسنا يا سيدى .

ــ ما اسمك ؟

ــ كاترين ياسيدى .

ــ وانت ؟

ــ جريتا ياسيدى .

ــ حسنا . اهبطى الى القبو يا كاترين واحضرى لى زجاجة من النبيذ المعتق . اما انت يا جريتا فاذهبى بى الى غرفة لا يزعجنا فيها احد .

اسرعت كاترين الى القبو ، أما جريتا فلم يسعها الا ان تتقدم الضابط الى الغرفة المخصصة للنزلاء الممتازين ، وافسحت له الطريق لكى يدخل ولكنه دفعها الى الداخل وتبعها قائلا :

ـ تعالى وقبلينى ياجريتا ... اذا ارضيتنى فسوف ابذل من جانبى كل شيء لارضائك .

ولكن الفتاة أسرعت الى ركن من الغرفة ، بعيدا عنه ، فاندفع نحوها وقد خرج عن طوره وامسك بيديها وجرها بالقوة الى المائدة والقى بها فوقها . وانسابت الدموع من عينى الفتاة المسكينة واخذت تنتحب فوقف يتاملها لحظة فى ازدراء ثم هز كتفيه وضحك ضحكة شيطانية وقال ساخرا :

ـ انهضى أيتها القذرة فان نفسى تتقزز منك . عودى الى رجالى ليقضوا معك ومع اختك وقتا طيبا .

ولكن الرعب كان قد شل الفتاة فلم تتحرك وراحت تبكى . وغضب دون رامون فصاح :

ـ سرجنت .. ايها السرجنت .

ولم يرد عليه احد فسار الى الباب ، ولكن قبل ان يضع يده على الاكرة فتح الباب من الخارج فى عنف فارتد الى وسط الغرفة وامسك بالمائدة لكى لا يقع وهو يصيح غضبا :

ـ ياللشيطان ... من هذا الوقح الذى ؟ ...

وماتت الكلمات على شفتيه ، وتجمد الدم فى عروقه واتسعت عيناه رعبا ؛ فقد راى بعتبة الباب رجلا يرتدى ثيابا داكنة ضيقة ويلبس حذاء طويلا يغطى ساقيه حتى اعلى فخذيه ويغطى راسه بقلنسوة وعلى وجهه قناع من الجلد . وكان اعزل من السلاح .

وذابت وقاحة دون رامون كما يذوب الثلج تحت اشعة الشمس المحرقة وامتلأت نفسه هلعا فقد سمع الكثير عن ذى القناع الجلدى ، وكان هذا الاخير طويل القامة عريض المنكبين ، وبدا فى النور الخافت كانه من الاشباح او من الشياطين .

ومرت لحظات والصمت المطبق يشمل المكان ، ثم تحول الرجل الغريب فاغلق البـــاب واحتفظ بالمفتاح فى يده . ودنا من جريتا وسالها :

ــ اين كاترين ؟

عقد الرعب لسان الفتاة فعاد الغريب يقول :

ــ تمالكى جاشك يا ابنتى ، فان حياتك وحياة اختك تتوقفان على شجاعتك . اين هى ؟

فتمتمت جريتا :

ــ انها ... انها ... فى القبو .

ــ هل يمكنك ان تلحقى بها دون ان تمرى بالجنود ؟ ... اذهبى اذن . لا تأخذا شيئا فيما عدا اموالكما واذهبا بعيدا عن هنا ... هل لكما اقارب او اصدقاء ؟

ــ نعم ... لنا عمة تقيم فى اندرموند .

ــ اذهبى اليها اذن أنت وكاترين ، فهناك ستكونان فى امان ولو مؤقتـــا .

وفتح الغريب الباب ، وبعد ان غادرت الفتاة الغرفة فى صمت اغلقه وادار المفتا حدورتين . وكان دون رامون قد تمالك جاشه اثناء ذلك ورأى الفرصـــة سانحة ليتخلص من ذى القناع الجلدى ، وكان جنديا لا تنقصه الشجاعة ، وكان سيفه معلقا بعيدا عنه ولكن خنجره كان لا يزال فى غمده ومعلقا بحزامه فجرده واسرع الى غريمه ، ولكن ذا القناع أحس بالخطر فابتعد قليلا وامسك بمعصم الاسبانى فى اللحظة التى هم فيها بان يهودى بخنجره . واطلق دون رامون صيحة غضب والم وارتخت عضلات يده كما لو ان كماشـة قد اطبقت عليها ووقع الخنجر على الارض . واعقب ذلك صدام بين الرجلين ... صدام وحشى اســـتعمل فيه الرجلان

يديهما . وكان الرجل الغريب اقوى من دون رامون ولم يلبث أن وجد هذا الأخير نفسه جاثيا على ركبتيه وقد اطبقت على عنقه أصابع من الفولاذ ... واحس بأنه هالك ... وهو ممثل شعب مختار يسيطر على شعوب بأسرها وله حق الحياة والموت على آلاف من البشر المساكين ... هو الذى طالما تلهى بتعذيب الأبرياء وهو ينظر اليهم فى ازدراء وكبرياء ... هو الشريف الاسبانى والرئيس الموقر احس بقواه تتخلى عنه . واراد ان يستنجد بأحد ولكن الصيحة احتبست فى حلقه .

ولهث يقول : — دعنى ايها الوغد .

فاجابه ذو القناع الجلدى :

— لن ادعك الا بعد ان تكفر عن ذنوبك ازاء الفتاتين المسكينتين .

— سوف اعذبهما واعذبك ... واعذب اهالى جنت كلهم .

— لن يتحقق لك هذا ايها المجرم لانى ساقتلك . لقد حانت منيتك فاطلب الغفران من خالقك .

ادرك دون رامون ان نهايته قد دنت وبذل جهدا اخيرا لكى ينهض والتقت يده عندئذ بمقبض الخنجر الذى سقط منه فامسكه ورفع يده وهو يرتعش واغمد الخنجر الحاد فى ذراع غريمة الأيسر ممزقا اللحم من المعصم حتى المرفق . وانفجر الدم ملوثا وجه الاسبانى ولكن هذا الاخير كان قد فقد كل قواه ولم يستطع ان يعيد الكرة . وبعد ثانيتين كان ذو القناع الجلدى قد دق عنقه بيديه القويتين . ووقع دون رامون من غير ان يطلق صيحة واحدة .

وكان الجنود لايزالون يغنون فى قاعة الحانة منتظرين

خروج كاترين من القبو ليصيب كل منهم وطره منها . وطالت غيبتها فنزل بعضهم الى القبو يبحثون عنها . ولكنهم وجدوا نافذة القبو مفتوحة على مصراعيها . اما الفتاة فلم يجدوا لها اثرا .

وما حدث فى القبو بعد ذلك لا صلة له بقصتنا هذه ولكن الجنود الذين بقوا فى القاعة راوا مشـــهدا عجبا لم يدركوا له معنى فى ذلك الوقت لفرط سكرهم ، فبينما هم فى انتظار زملائهم فتح البـــاب المؤدى الى القاعة وخرج منه رجل مقنع خاطبهم قائلا :

ــ ابلغوا السرجنت ان الكابتن رامون دى لينيـــا قد مات .

وسار المقنع بعد ذلك الى الباب الخارجى واختفى فى الظلام .



الفصـــل الخامس

الانتقـــــام

استمعت لينورا دى فارجاس الى قصة مقتل دون رامون وهى شاردة النظرات مطبقة الشفتين مرتعشة الأوصال . وقد سرد عليها هذه القصة دى فارجاس نفسه ، ولكن بعد أن غير فيها وبدل لغرض فى نفسه فقد ذكر لها أن دون رامون كان فى حانة « النساجون الثلاثة » لعمل عسكرى خاص وان رجلا مقنعا قتله غيلة وغدرا وانتهز فرصة الظلام وهرب من السرجنت ورجاله . ولم تكن دونا لينورا تعرف اباها بما فيه الكفاية لكى تشك فى قصته . وكانت قد احبت ابن خالها حبا جارفا ولم يدر بخلدها أبدا ان رامون يمكن ان يكون متقلبا وقاسيا فقد عرفته منذ نعومة أظفارها وكان رفيق صباها ثم انه كان اول من همس فى اذنها بعبارات الحب ، وقد قتله رجل غريب غدرا وغيلة وفى الظلام . وتمتمت تقول محطمة الفؤاد :

ــ هذا غريب ... قال لى رامون امس فى دار البلدية ان أهالى البلاد المنخفضة يضربون ضربتهم فى الظلام ومن الخلف دائما .

فقال فارجاس : ــ هو ذلك يا ابنتى . ولعلك تعرفين

لآن لماذا نمقت كل هؤلاء الجبناء فليس فيهم الا كل
محق شرير،يستوى فى ذلك الرجال والنساء والأطفال
والشيوخ . انهـــم يهابوننا ولا يجرؤون على منازلتنا
جهارا . وقد لجأ اورانج وجيشه الصغير الحقير الى
هولندا ولم يجرؤ على مواجهة جيوشنا الشجعان .
وقد خلق فى البلد جيشا من الجواسيس تجدينهم الآن
فى كل مكان من المدينة ومهمتهم ان يضربوا من الخلف
متى استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وهم يترقبون جنودنا
وينتظرونهم فى الظـــلام او يتعقبونهم حتى الحـــانات
ويقتلونهم غدرا وغيلة . وهكذا يلطخون شوارع المدينة
بدماء الاسبان النبلاء . وقد قتلوا امس دون رامون
وقد يقتلون غدا جيان دى فارجاس ... بل من يدرى
... ربما يقتلون الدوق الفا نفسه . انهم عصبة من
قتلة الاشرار يقـــودهم قاتل محترف يدعوه جنودنا
باسم « ذو القناع الجلدى » .

فقالت لينورا مفكرة :

ـــ نعم . انني سمعت به . وهل تظن انه هو الذى
قتل رامون ؟

ـــ ان السرجنت ورجلين من رجاله على يقين من
ذلك . ولا ريب ان هذا المجرم من اهالى جنت فانهم
تعقبوا آثاره حتى ابواب المدينة نفسها . ولكن ماذا
تريدين ؟ ان له اصدقاء كثيرين فى المدينة وما اظن ان
احدا يرفض ايواء مثل هذا القاتل الماهر .

ـــ اواه يا ابى ... هـــل تعنى ان المحـــافظ ...
او خطيبى ؟ ...

هز فارجاس كتفيه واجاب متهربا :

ـــ ان هؤلاء الهولانديين لا يمكن الوثوق بهم . ان

المحافظ وابنه مارك معروفان باخلاصــهما وولائهما للاسبان ولكن الآخرين ... ابنه الاخر ... والأم .

وأردف يقول متعمدا :

ــ ومن يدرى ؟ ... لعل قاتل رامون يقيم فى بيت خطيبك .

برقت عينا لينورا ببريق الحقد وقالت :

ــ ليت ذلك يكون ، فان اقصى ما اتمناه هو ان اجد نفسى معه وجها لوجه .

ادرك مارجاس عندئذ أن خطته قد افلحت ، فقد أهاج ابنته مصرع حبيبها وامتلأ قلبها حقدا على قاتله بحيث لا تتردد أمام شيء لكى تنتقم منه . وقال :

ــ هناك وسيلة يمكنك بها ان تعرفى قاتل ابن خالك رامون .

ــ وســيلة ؟

ــ نعم . فهو يحمل على ذراعه علامة جريمته ، وهى علامة لا يمكن ان تمحى .

ــ ماذا تعنى يا ابى .

ــ ان رامون لم يكن قد فاضت روحه عندما حمله السرجنت ونقله الى بيتى . وقد اسعفته واستطاع ان يقص على ماحدث فى كلمات متقطعة فقال لى انه فى اثناء المعركة بذل مجهودا جبارا واغمد خنجره فى ذراع القاتل ومزق اللحم من المرفق حتى الرسغ . ولا يوجد فى جنت بطبيعة الحال رجلان يحملان نفس الجرح . ثم ان اثر الجرح سيبقى ظاهرا سنوات طويلة .

قالت لينورا : ــ اعتقد اننى ساعرف القاتل من غير هذا الاثر .

نظر فارجاس الى ابنته نظرة طويلة ثم قال :
— اعتقد ان كلانا قد فهم الآخــر الآن يالينورا .
— قل لى ماذا يجب ان افعل يا أبى .
— ان قلبك وذكاءك سيمليان عليك ذلك . ستنضمين الى عائلة المحافظ بعد بضـــعة أيام فافتحى عينيــك واصيخى السمع جيدا واكتسبى ثقة كل المحيطين بك ولا تدعى كلمة أو اشارة او علامة واحدة تفلت منك . هل تعديننى بذلك يالينورا ؟

— اعدك يا ابى .
— ان الحاكم العام يعتقد ان الامير اورانج اقبل الى جنت منذ أيام قلائل ، ويمكنك أن تساعدينا فى الاهتداء الى هذا الخائن ليلقى الجزاء الذى يستحق .
— ساساعدكم يا أبى .

— سياتى الحاكم العام الى جنت بعد بضعة ايام . وستكون حياته فى خطر فى كل مكان يذهب اليه . واذا كان اورانج قد جاء الى جنت فذلك لكى يتآمر ضد الدوق . فعدينى أن تسهرى عليه انت أيضا .

— اعدك بذلك يا أبى .
— وبعد اورانج يأتى دور « ذو القناع الجلدى » فيجب أن ننتقم للدوق رامون ، فلا تنسى هـــذا الامر يا ابنتى .

— كلا يا أبى . لن انســاه ابدا .
واخرج فارجاس شريطا حريريا من جيبه علق به قطعة مسلحة من المعدن غريبة الشكل وقال :
— اليك هذا يا ابنتى ، فقد قدم خـــدمات جليلة لمليكنا ووطننا وعقيدتنا ... خدمات لم يقدمها جيش

من الجواسيس . انه طلسم صغير لا يستعصى عليه ان قفل فى العالم صنعه من اجلى ابرع صانع فى « طليطلة » وقد بلغت براعة هذا الصانع حدا دفعنى الى ان القى به فى غياهب السجن لان امره اصبح خطرا . وهذا المفتاح يفتح كل الاقفال حتى اشدها تعقيدا فاحتفظى به جيدا فسوف تكونين فى حاجة اليه. وتذكرى يا ابنتى انه يجب ان اعود الى بروكسل فى غداة يوم زواجك ، فاذا حدث شىء فتعللى بأى سبب أو اهربى وابذلى المستحيل لاخبارى بدون تأخير . وتذكرى ان اباك يعرف كيف يصمت عند الحاجة ، ولن انطق باسمك بأى حال من الاحوال .

* * *

القسم الثاني

نندر موند

الفصل الاول

امراة غريبة فى بلد غريب

احتفل بزواج دونا لينورا دى فارجاس ومارك فان ريك بعد ذلك باسبوع وحضر الاحتفال عدد كبير من اعضاء المجلس الاعلى ومن كبار اسبانيا وأعيان واشراف جنت ، وكان احتفالا عظيما مهيبا فقد علم الجميع أن الملك نفسه وافق على الزواج وباركه كما باركه قداسة البابا هو الآخر وسمح القائد الأعلى باشتراك ضباطه وجنوده الممتازين فى حفلة الزفاف .

وبعد أن تمت الاجراءات الكنسية اقيمت مادبة كبيرة فى دار البلدية حضرها اربعة وثمانون مدعوا من عليه القوم ، وصفت موائد كل منها لاثنى عشر مدعوا واكل الجميع مالذ وطاب من طعام وحلوى وشراب .

وتصدر السيد دى فارجاس مائدة الشرف وجلست العروس الى يمينه فى حين جلس العريس الى يساره. وجلس المحافظ وزوجته وابنه لورنس الى نفس المائدة، وكان الاسبانى منبسط الأسارير . وكان هذا الزواج

اول زواج بين اسرتين كبيرتين احـــداهما اســـبانية والأخرى هولاندية ، وتمنى السيد دى مارجاس ان يكون فاتحة زيجات اخرى بين البلدين .
وكانت العروس فائقة الجمال ، أما العريس فكان كمادته ، متعبا مكدودا ناعس العينين يبدو كأنه لم يذق طعم النوم منذ اسبوع ، وكان فوق ذلك شاحب اللون، عابس الأسارير .

ومر اليوم دون ان يقع ما يستحق الذكر ، وبعد أن انفضت المأدبة رفعت الموائد ، واقبل مدعوون آخرون للاشتراك فى الحفلة الراقصة التى كان مفروضا ان تستمر الى وقت متاخر من الليل . ولكن العروسين انصرفا قبل ذلك بكثير ، وتقدمهما موكب صغير الى بيت المحافظ حيث يقيمان ريثما يتم اعداد بيت مناسب لهمـــا .

ورافقت كليمانس فان ريك العروس حتى الغرفة التى أعدت لها واجلستها على مقربة من النيران . واسرع مارك لوضع طاولة صغيرة تحت قدمى زوجته ووسادة من الريش خلف ظهرها . واكتفت لنيورا بان ابتسمت لهما شاكرة فقد كانت من التعب والارهاق بحيث لم تستطع النطق . وباركتها كليمانس فان ريك ثم تركتهما وانصرفت .

بدا البيت وقد شمله السكون فجاة وبقيت لينورا جالسة تنظر الى النيران المشتعلة عاقدة يديها فوق ركبتيها وهى بثوب الزواج الأبيض الذى يبرز مفاتن جسدها ، ونظر مارك اليها طويلا ثم سألها قائلا :

ـــ هل انت متعبة يا سيدتى ؟
ـــ نعم ايها السيد .

ـ الحق أنه كان يوما متعبا جدا واعترف اننى مرهق وسوف أنصرف بمجرد أن تأتى جان .

لم تنطق ونظرت فى شرود الى النيران وهى تتراقص وتتوارى فى الموقد فاردف يقول فى شىء من الانفعال :

ـ لن تتاخر جان فهى تعنى بامى كل ليلة . هل استطيع ان الازمك الى ان تاتى ؟

ـ اننى تحت تصرفك ايها السيد .

فقال وهو يتكلف المرح :

ـ يا الهى .. ما هذه اللهجة الفاترة يا عزيزتى ؟ لكان وصيفتك لا تزال واقفة بيننا ... يمكنها ان تفخر بأنها تسببت فى تخفيض درجة حرارتى اكثر من مرة .

واخذ يضحك وهو بين الجد والهزل ثم تجرأ ودفع بمقعد الى جوار النيران وجلس بجانب عروسه . ولم تلتفت اليه فقال فى رقة :

ـ لولا اننى ارى عينيك تختلجان يا حبيبتى لاعتقدت انك تمثال من الرخام .

وانحنى صوبها ليتسنى له ان يتأملها كما يريد . كان كل شىء فيها جميلا فاتنا تتراقص على ملامحها شيئا فشيئا نيران الموقد وظلال الليل . وتنهد مارك وامسك يدها ولكنها سحبتها على الفور كما لو كان قد جرحها فقال :

ـ هل آلمتك يا حبيبتى ؟

ـ ابدا ايها السيد .

ـ الا يمكننى اذن ان ابقى يدك فى يدى قليلا .

ـ آه . يمكنك ذلك .

فقال الشاب :

ـ اظن انه سينقضى وقت طويل قبل ان يحل بيننا الوفاق يا لينورا .

فابتسمت ابتسامة رقيقة واجابت :
— وهل كنت تتوقع أن يكون الأمر غير ذلك بعد أن تمت خطبتنا هكذا .
— ومع ذلك فقد قدر لنا ان نعيش معا .
فتنهدت قائلة :
— انه لامر يؤسف له .
— الا تفكرين فى سعادتك ؟
— سعادتى ؟ ... معك انت ؟
— ولم لا ؟ الا نتمتع بالشباب ؟ ان الحياة أمامنا طويلة وقد كتبت اياد خرقاء المقدمة . ولكن فى مقدورنا ان نقلب الصفحة الاولى وان نسطر صفحات اخرى أجمل منها اذا شئت .
وازداد دنوا منها ووضع ركبته فوق الأرض واحاط خصرها بيده ليتسنى له ان يضمها اليه وقال :
— اى فاتنتي ... دعينى ... دعينى احبك .
فوثبت واقفة وتخلصت منه وصاحت متهكمة :
— تحبنى ... انت ؟
عض مارك على شفتيه ونهض وعبست اساريره وبرقت عيناه لحظة ببريق العداء ، ولكنه تمالك نفسه مع ذلك وأجاب فى غير انفعال :
— نعم . انا زوجك . هل من الغريب ان يحب الزوج زوجته ؟
— اننى لا اكن لك اى حب ايها السيد ، وأنت تعرف مشاعرى نحوك فى الليلة التى تمت فيها خطبتنا . وقد قلت لك فى دار البلدية كل ما لدى ولم اغير رايى بعد ذلك . انك تزوجتنى من غير حب ورضيت بى كسلعة متبذلة . هل لك أن تذكر لى ماذا فعلت طوال هذه الأيام الثمانية التى انقضت على خطبتنا ؟

ـ ولكننى بقيت نصف ساعة كل يوم امتع عينى فى اعجاب صامت باشد الفتيات برودا فى العالم امام عينى وصيفتها المتجهمتين .

ــ نعم ... نعم ... وباقى الوقت ؟ .. الم تقضه فى حانات جنت ؟ ...

فسألها فى هدوء :

ــ من قال لك هذا ؟

ــ ان سمعتك معروفة ايها السيد ، وكان لابد ان تنتهى الى اذنى .

مد مارك ساقيه نحو النار وقال :

ــ ان السنة السوء قد وجدت مرتعا خصبا . وحتى اذا صحت هذه الشائعات فأنا وحدى الذى احتمل عار سلوكى هذا . اننى اعلم انهم ينظرون الى فى المدينة نظرتهم الى رجل سوء ، واننى اقر بذنبى فيما يتعلق بالماضى وارجو ان تتقبلى اسفى وندمى .

وكانت لهجته قد رقت للمرة الثانية فقد كان الهدوء والسكون يخيمان على البيت ، وكان وحده مع لينورا ، ثم ان لينورا كانت زوجته ، وقد دفعته هذه الوحدة الى غزو قلبها فجثا على ركبته واخذ يد الاسبانية وقال فى لهجة تفيض اقناعا :

ــ ان رجالا كثيرين يسيئون التصرف يا حبيبتى لينورا لانهم لايرون حولهم الا كل ظلم وجور ثم ان كثيرا منهم من الضعف لا يستطيعون مقاومة الاغراء وارجو ان تعلمى اننى لست شريرا الا فى الظاهر ، وانه ليقال عنى اننى مهووس وطائش وامى نفسها تعتب على ذلك ولكن اذا رضيت ان تبتسمى لى فسوف اعمل على ان اكون جديرا بك .

وكان صوته فى العادة خشنا دائم التهكم ولكنه نطق بالكلمات الاخيرة وهو يتهدج رقة وانفعالا .. وحولت لينورا عندئذ راسها الى زوجها على غير وعى منها فتقابلت نظراتهما ، واضطرم وجه الفتاة وراح صدرها يرتفع وينخفض وانفرجت شفتاها . ولعلها كانت على وشك الاستسلام فى تلك اللحظة ، ولكن لم يكن ذلك مؤكدا . ومهما يكن من امر فان مارك خيل اليه ان اللحظة المناسبة للعمل قد دنت فجذب الفتاة اليه فجاة واراد ان يقبلها فى شفتيها ولكنها اطلقت صيحة مختنقة ودفعته بعيدا عنها وهى تقول :

ــ دعنى ... دعنى ... اننى امقتك .

لم يحاول مارك المزيد ونهض واقفا . ومسح جبينه وقال فى اسى :

ــ سامحينى يالينورا . لم اكن ادرى انك تمقتيننى الى هذا الحد . ساعمل على ان تاتى وصيفتك اينيز لتؤنسك فى وحدتك ، وارجو ان لا تثقل عليك الوحدة بعيدا عن الذين تحبينهم . ان امى ملاك وسوف تروق لك بكل تاكيد ، واخى لورنس رجل مثقف على درجة كبيرة من العلم ، وابى رجل فاضل وسوف يبذلون ما فى وسعهم لاسعادك .

وانحنى امامها دون ان ينتظر ردا واسرع بمغادرة الغــرفة .

ومضى اليوم التالى من غير ان تراه . وفى المرة الوحيدة التى سالت فيها عنه هزت كليمانس فان ريك كتفيها وهى تتنهد واغتصب المحافظ ضــحكة وقطب لورنس حاجبه . وفى المساء ، عندما اوت الى غرفتها وهى تشعر بالمهانة لتركه اياها هكذا سالت اينيز التى اقبلت لترافقها فاجابتها العجوز :

ـ قيل لى أن السيد مارك قضى طوال النهار فى حانة « النساجون الثلاثة » وهى الحانة المواجهة التى تغص بالضباط الاسبان .

صاحت لينورا على الرغم منها :

ـ رحماك يا ربى ... لعله لم تقع مشاجرات .

ـ لا تخافى ياملاكى فان السيد مارك فان ريك لن يجرؤ على منازلة أحد ضباطنا . كلا ... كلا ... انه قضى وقتا طيبا وتناول الشراب معهم واظنه لايزال هنـــاك .

والواقع أن صدى الضحكات والصــيحات المرحة تناهت الى سمعيهما ، واضطرم وجه لينورا وقالت :

ـ اغلقى النافذة يا اينيز فان الليلة باردة .

وسارت وجلست بجوار النار وصرفت وصيفتها .

لقد عرفت الآن كل ما كانت تريد معرفته وآثرت أن تبقى بمفردها لتفكر فى مدى خيبة الأمل التى منيت بها . كان قد مرت بها أوقات كثيرة طوال الاسبوع الماضى منت نفسها فيها بشىء من السعادة وقد عرف مارك فى أوقات كثيرة بحديثه الحلو ودعاباته المرحة أن يولد فيها رعشة غريبة محببة . وقد ندمت بالامس كل الندم لأنها تسببت فى رحيل زوجها بكلماتها الجارحة التى وجهتها اليه ، ولو أنه بقى أمامها لحظة أخرى لجثت أمامه وسألته الصفح . ولكنها وصفته الآن بانه حقود جامد القلب . فلو أنه أحس نحوها بشىء من الود لما تركها يوما باكمله مثقلة بالحزن والضجر فى بيت كل شىء فيه غريب عنها . كلا . انه لا يحبها وكل مانطق به أن هو الانفاق ورياء ، وانها الآن لواثقة أنها تمقته ، هذا الكاذب المخادع الفاسق المريب !

وبذلت مجهودا كبيرا حتى لا تنفجر بالبكاء واحست بالوحدة تثقل عليها فى ذلك البيت الكبير الصامت ... صامت ؟ ... ابدا ... لان افراد الاسرة لم ياووا الى مضاجعهم بعد . وخيل للفتاة انها تسمع شيئا . واخافتها الوحدة واحست برغبة جنونية تدفعها الى الهبوط الى جوار حماتها لتبثها اشجانها فان هذه الاخيرة ستعرف برقتها وحسن ادراكها كيف تنطق بالكلمات التى تبعث الدفء والاطمئنان الى قلبها .

وسارت الى الباب .



الفصـــل الثـاني

الثـــوار

فى تلك الساعة بالذات اجتمع خمسة رجال وامرأة حول مائدة فى الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفة الطعام بقصر آل فان ريك ؛ كان لورنس فان ريك واحدا من هؤلاء الخمسة . اما المرأة فكانت امه . وجلس امامها رجل يلبس ثيابا خشنة من جلد البقر ، يتدلى من حزامه خرج ثقيل ويلبس حذاء طويلا يصل الى مافوق ركبتيه. وكان قد وضع قبعته السوداء ومعطفه على مقعد بجانبه. كان يبدو لمن يراه انه خادم تابع لاحد الاشراف ، ومع ذلك كان يضع حول عنقه شريطا احمر تتدلى منه علبة من الذهب تدل على انه من علية القوم .

وكان الآخرون يستمعون اليه فى احترام كبير ، وكان لورنس فان ريك واقفا بجواره يقدم اليه مابين وقت وآخر كاسا من النبيذ . وكان ذلك الرجل يبدو طويل القامة طليق اللحية له شارب كبير ويدل جبينه العريض على الرقة والصراحة .

اما الثلاثة الباقون فكانوا يرتدون ثيابا داكنة وقد وضعوا معاطفهم السوداء على ظهور مقاعدهم .

وكانت كليمانس فان دريك تقول فى هذه اللحظة ردا على سؤال وجهه اليها الرجل الغريب الجالس امامها :

ــ لقد ذهب المحافظ الى دار البلدية ولن يعود قبل منتصف الليل ، وابنى مارك فى الخارج هو الآخر ، وفى مقدور سموك ان تتحدث بكل اطمئنان وان تناقش الخطط مع هؤلاء السادة . هل يجب ان انصرف ؟

ــ كلا يا سيدتى . يمكنك انت وابنك أن تسمعا ما سوف نقول لنحن ندين لكما بالكثير .

ــ ان القليل الذى فعلناه يا مولاى انما فعلناه بكل سرور ، وليس فى مدينة جنت كلهــا من يتأخر من خدمتكم .

ــ خدمتى انا ؟ . . . لست يا سيدتى الا اداة لارادة الله ، وقد بذلتم كل مابذلتموه فى سبيله وفى ســـبيل العدالة والحق .

فقالت فى حرارة :

ــ ان شعارنا يامولاى سيكون دائما : فى سبيل الله ومن اجل غليوم اورانج . ان قضــيتنا عادلة ويجب أن تنتصر .

فقال الامير : ــ مما يؤسف له اننا لم نجد حتى الآن غير الوعود . ان معنا الآن الفى رجل . . . الفا رجل تحت لوائنا من ثلاثين الف ، وهو عدد قليل اذا نظرنا الى الجهد الذى بذلناه والى ما حل بمدينتى مونس ومالين . . . متى تتفتح عين الشعب ؟

قال لورنس فى شىء من الخجل :

ــ اذن لماذا يرفض مولاى ان يضمنى اليه ؟

رفع الامير راسه واجاب :

ــ لا تكن متعجلا . سوف تاتى ساعتك مادعوك . ولتبق فى بيتك فى اثناء ذلك . ان الخدمات التى تقدمها لى هنا اجل من تلك التى يمكنك ان تقدمها لى فى الجيش .

ولا تنس ان امامنا عملا كثيرا فى جنت وان هناك بيوتا ننتظر منها مساعدة فعالة .

وتدخلت كليمانس فقالت :

ــ حذار من الخونة يامولاى .

فاجابها الغريب وهو يبتسم :

ــ اطمئنى يا سيدتى ، فلا خطر على لان هناك ملاكا حارسا يسهر علي . هل تعلمين اننى لا استطيع ان اخطو خطوة واحدة فى هذه المدينة من غير اذنه ؟ ... واذا كنت قد استطعت القدوم اليكم لاعبر لكم من شكرى فصدقينى ان ذلك لم يكن سهلا .

فصاح أحد الحاضرين :

ــ كيف هذا ؟ ... ونحن اذن ؟ ... السنا محلا للثقة ؟ ... الا نستطيع ان نذود عنك ؟

ــ لا داعى للانفعال ايها السادة . لا ريب انكم تعلمون ان هذا البيت يضم اشخاصا آخرين غير صديقى ريك وامه . وان « ذو القناع الجلدى » ملاكى المخلص يعرف ما يفعل . وقد اثبت ذلك مرارا فلا تعتبوا عليه فلولاه ما اجتمعت بكم الليلة .

قالت كليمانس فان ريك : ــ هذا صحيح يامولاى . واننى لاتنازل عن الكثير لكى اعرفه ، وادعو الله ان يحفظه .

ضحك الامير ضحكة رقيقة وقال :

ــ ان احدا لايعرفه ياسيدتى . وهو بالنسبة لى ليس أكثر من « ذو القناع الجلدى » وهذا يكفى . ولكن يجب أن اعود فى الساعة العاشرة ، والوقت لا يتسع للثرثرة .. هيا الى العمل الجاد أيها السادة .

ــ كلنا آذان صاغية يا صاحب السمو .

ــ اننا اتفقنا على الخطة الاساسية ، وعلينا الآن

أن ندرس تفصيلها ونضعها موضع التنفيذ . ذكرتم لى ان دوق الفا سيأتى الى جنت بعد بضعة ايام وان رجالنا الالفين على استعداد لتنفيذ الاوامر .

فقال احد الثورا : ــ سيتضاعف عددهم بعد بضعة ايام يامولاى ، فلم يعلم بوجودكم معنا فى جنت غير حفنة من الرجال المخلصين ومع ذلك فقد وقعت معجزات .

ــ حسنا . ان كل زيادة فى الرجال تزيد الامل فى الانتصار ، ولا اخفى عليكم اننى لا احب الدسائس ولا المؤامرات فانا جندى قبل كل شىء . ولكنى وضعت مصلحة وطنى فوق كل شىء عندما رايت انكم جميعا تؤيدون ذلك . . .

وانحنى فوق المائدة واستطرد يقول فى همس :

ــ سياتى دوق الفا الى جنت بعد بضعة ايام اذن وخطتنا الاساسية هى أن نستولى عليه ونحتفظ به أسيرا ريثما نتفاوض فى سحب الجيوش الاسبانية من الاراضى المنخفضة والغاء ديوان التفتيش . وهــذه الخطة لا يمكن أن تفشل فان لدينا الفى رجل ، وغدا يتضاعف عددهم ، وفى هذا العدد الكفاية ، ولكن هناك صعوبات تعترض خطتنا هذه لأن الدوق الفا يحتفظ بموعد قدومه سرا حتى آخر لحظة .

فساله احد الثوار : ــ هــل يخشى الدوق على حيــاته ؟

وتدخلت كليمانس فان ريك فقالت :

ــ لقد اصاب صاحب السمو ففى آخر مرة زار فيها دوق الفا مدينة جنت اقبل رسول خاص واخبر زوجى قبل قدوم الدوق بساعتين اثنتين .

ــ ولهذا يجب أن نجمع رجالنا فى بحر نصف ساعة على الاكثر . وهناك اربعة مخازن سرية مملوءة بالاسلحة وضعت عليها اربعة رجال مخلصين ، وقد كلفت كلا منهم بالاشراف على خمسمائة من رجالنا المذكورين وكلفت كلا من هؤلاء الرجال الاربعــــة بتوزيع الاسلحة على رجاله . وسوف يندس هؤلاء الرجال مع الاهالى ، ومتى اقبل الدوق الفا واجتاز الجسر هجم رجالنا عليه ، وبفضل الفوضى التى ستقع عندئذ سيتفرق الجنود ، وسوف ننقل الدوق بعد ذلك الى قلعة الاشراف ونحتفظ به اسيرا حتى تتم مفاوضاتنا مع الملك . وقد اجتمعت بكم الآن لاعرض عليــكم الخطــة التى رســـمتها مع المستشارين لكى نجمع الالفى رجل فى اقل وقت ممكن . هل تصغون الى ايها السادة ؟

ولم يكن الأمير فى حاجة الى القاء هذا السؤال فقد كانوا كلهم آذانا صاغية ، وهم بأن يستطرد فى حديثه عندما سمع حركة خفيفة عند النافذة كما لو كان احدا ينقر عليها من الخارج ، وتطلع الجميع اليها فى قلق ، وكان الأمير اول من نهض فأسرع الى النافذة وهو يقـــول :

ــ انه ذو القناع الجلدى من غير شك .

وأسرع بنفسه الى النافذة ففتحها . وكان الظلام فى الخارج حالكا ولكن القوم استطاعوا ان يتبينوا فى الظلمة رجلا يغطى وجهه بقناع من الجلد . وسأله الامير فى صوت خافت :

ــ ما الخبر ياذو القناع الجلدى ؟

ــ هناك نور يتحرك فى غرف الطابق الارضى ، وقد رايت شبحا يتسلل امام نوافذ الدهليز والاجتماع يوشك على الانتهاء فى دار البادية فحذار .

فقال الامير : ــ لقد اوشكنا ان نفرغ . ساخرج بعد لحظات . هل هناك احد فى الشارع ؟

ــ كلا ، فان الحارس يقوم بدوريته ، ولن يعود قبل عشر دقائق . ولكننى اخشى ان يسبب لنا متاعب فهو ثمل .

واختفى الرجل المقنع واغلق لورنس النافذة وهو يقول :

ــ ليتنى كنت مكانه .

وقال الامير وهو يعود الى مقعده :

ــ ها انتم ترون انه يسهر على جيدا . يجب ان اوجز فى حديثى الآن .

وفتح خرجه واخرج حزمة من الاوراق وقال :

ــ اننى اعهد بهذه المستندات الى السيد لورنس فان ريك ، وهى تضم اسماء رجالنا الالفين الذين اقسموا على الولاء واننى اعهد بها اليه لانه سيكون بحكم وجوده فى هذا القصر اول من يعلم بموعد قدوم الدوق ألفا ، وعليه عندئذ ان يسلم كلا منكم كشفا يضم اسماء خمسمائة من الرجال والمكان الذى يجب ان يجتمعوا فيه لاستلام الاسلحة . وعلى كل منكم ان يخطر رجاله شخصيا .

وناول الاوراق للورنس فان ريك وهو يقول :

ــ هذا سر كبير أعهد به اليك ايها السيد ، ولا تنس ان حياة كثيرين من الرجال ومصير بلد تتعلق به ، فأين تحتفظ بها ؟

فاجابت كليمانس فان ريك :

ــ ان هذه الغرفة هى مخدعى الحالى ، وبهذا المكتب درج له قفل لا يستطيع احد ان يفتحه واننى اضع فيه

مجوهراتي . وسوف اضع الاوراق فيه .
ــ هذا حسن يا سيدتى . اننى كبير الثقة فيك وفى ابنك .
ونهض الامير واقفا فقالت كليمانس :
ــ هل تريد ان يحضر ابنى مصباحا يا سيدى ؟
ــ كلا يا سيدتى . يكفى هذا الضوء . لا يجب ان نلفت الانظار الينا . واشكركم على حضوركم ايها السادة . سيرافقنى ذو القناع الجلدى الى بيتى . تذكروا تعليماتى جيدا والله يوفقكم .

الفصـــل الثالث

الجاســوسية

هبطت لينورا درجات السلم فى بطء يحدوها الأمل فى أن تجد بجوار مدام كليمانس فان ريك قليلا من العزاء والسلوان . وكانت تمسك فى يدها شمعة . ووقفت فى الفناء . وانصتت كان الصمت حولها عميقا غريبا مخيفا ولكنها مع ذلك لم تلبث أن تبينت همسا فى احدى الغرف . فأرهفت السمع واطفأت الشمعة بدافع غريزى .

وكان هناك ضوء خافت متذبذب ينبعث من مصباح حديدى موضوع فوق منضدة صغيرة عند اسفل السلم ينعكس شعاع منه على المقبض النحاسى لباب غرفة الطعام فتقدمت فى حذر ووضعت يديها على المقبض ووقفت تصغى مرهفة الحواس .

لم يكن هناك اى شك فى أن اشخاصا كانت تتحرك وتتحدث فى الناحية الاخرى ، ولم يكن ذلك فى قاعة الطعام ولكن فى الغرفة الصغيرة التى تقع بعدها لأن الصوت كان ضعيفا جدا . وادركت لينورا أن الباب الفاصل بين الغرفتين مفتوح ، ولم تعد بها رغبة الا فى أن تعرف ما يدور فى قصر الحاكم فى هذه الساعة من الليل . هل خامرها الشك فى أن قوما يتآمرون ، ولعلها

تذكرت القسم الذى اقسمته لابيها للانتقام لدون رامون؟ لا ندري . . . ولكنها اصغت فى اهتمام شديد . وفى هذه اللحظة بالذات نهض شخص وسار الى آخر الغرفة وسمعته يفتح النافذة . واندفع الهواء فحرك البـــاب الذى تلتصق به الفتاة فلم يسعها عندئذ الا ان تدير المقبض فانفتح الباب من غير أن يصدر منه اى صوت. وتقدمت الى الداخل ، وكانت تلبس ثوبا من الصـــوف الداكن فلم يكن هناك اى خوف من ان يراها أحد اذا هى بقيت فى الظلام وبسطت يديها وتقدمت فى تردد وفى انفعال كبير ، واخيرا رات . . .

رات المائدة فى وسط الغرفة وكليمانس فان ريك والرجال الجالسين حولها والنافذة المفتوحة والرجل الواقف أمامها يتحدث الى شخص فى الخارج ، ثم اختفى الرجل عن نظرها بعد أن اغلق النافذة .

وتبينت الاسبانية بعد ذلك الكلمات التى تبودلت بين الموجودين ، وسمعت أحد الرجال وهو الذى كان يدعوه الآخرون بلقب مولاى ، وقد ادركت طبعا انه هو الامير اورانج ، يشرح لمحدثيه أن الفى رجل سوف يتجمعون فى اليوم الذى يزور فيه الدوق الفا المدينة وسمعت اسم « ذو القناع الجــلدي » مرارا ثم رأت الأمير يعطى لورنس فان ريك حزمة من الاوراق وضعها هذا الاخير فى درج المكتب بجوار النافذة .

ادركت لينور المعنى الكامن فى كل ما رات وسمعت، وهكذا انحسر القناع كاشفا أمام عينيها اللتين ارتسم فيهما الفزع خداع الهولنديين وتمردهم على الملك فيليب، ملك اســـبانيا وغابت عنها الحقيقـــة المرة وهى أن الهولنديين ذاقوا الاهوال والعـــذاب على يد الاسبانيين المستعمرين وانهم يحاولون التحـــرر من نير العبودية

والاستعمار ، ثم أنها لم تر فى « ذو القناع الجلدى » الا واحدا من هؤلاء المتآمرين ... قاتلا يقتل فى الظلام كما قتل دون رامون ... قاتل أجير يفخر الامير اورانج بصداقته .

بقيت لينورا جامدة فى مكانها وقد امتلأت رعبا وفزعا. ورات ان الاجتماع يوشك ان ينتهى فاستولى عليها خوف شديد ... خشيت ان تصطدم فى شىء وان تتعثر اذا تقهقـــرت او ان يصدر منها صوت ينم منها قبل ان تستطيع فضح هذه المؤامرة وانقاذ الدوق . وكان لورنس قد اغلق درج المــكتب ، ونهض الأمـــير يبغى الانصراف .

وجمعت الاسبانية اطراف ثوبها بيديها الاثنتين ثم خرجت من الغرفة مسرعة كالشبح واجتازت الدهليز وارتقت الدرج بكل ما اوتيت من خفة واختفت فى الظلام بالطابق الأول ، وما هى الا لحظات حتى سمعت كلمات الامير الاخيرة وهو يودع الآخرين ، وادركت ان مدام كليمانس فان ريك لن تلبث ان تصعد هى ولورنس لياويا الى غرفتيهما فتسللت الى غرفتها وهى ترتجف من الانفعال ، ولم تمر الا دقائق قلائل حتى سمعت خطوات لورنس وامه وهما يتجهان الى غرفتيهما ثم شمل الصمت ارجاء القصر .

ومضت ربع ساعة وخبت النار تقريبا فى الموقد ، واجفلت لينورا اذ سمعت الباب العمومى للقصر — يفتح وادركت ان المحافظ قد عاد من دار البلدية . وسمعت صوت المزلاج وهو يوضع خلف الباب ثم اجتاز المحافظ الدهليز وارتقى الدرج ليلحق بزوجته ثم شمل الصمت المكان ثانية .

وانتظرت لينورا فترة طويلة بعد ذلك ، وتساءلت هل عاد مارك أم سيقضى الليل كله بالخارج ، وهل يعلم بما يدور فى بيت أبيه من مؤامرات هو الآخر .

ومرت ربع ساعة أخرى ، ودقت الكنيسة القريبة الربع الأخير قبل انتصاف الليل ، ورأت لينورا أنها انتظرت بما فيه الكفاية وأنها تستطيع مغادرة غرفتها بكل أمان فاستبدلت ثوبها بثوب آخر ضيق يسمح لها بالتحرك كما تشاء . وكانت تتصرف كما لو كانت قوة أعلى من ارادتها تسيرها وتسيطر عليها . كانت هذه القوة هى القسم الكبير الذى اقسمته لابيها أمام جثة رامون والطاعة العمياء لواجبها نحو الملك والوطن ، ولم تناقش نفسها لحظة واحدة . كانت تعرف مدى أهمية المعلومات التى سمعتها للحاكم العام فان الأمير أورانج فى جنت وذو القناع الجلدى معه ، وهما يتآمران على سلامة الدوق ألفا . كانت تعلم كل هــذا ولكن معلوماتها هذه لم تكن كافية مع ذلك ، فقــد شاءت الصدفة أن ترى لورنس وهو يضع الاوراق الدامغة فى درج المكتب ، وعقدت العزم على أن تأخذ هــذه الأوراق وتسلمها الى أبيها وبذلك تكون قد قامت بواجبها خير قيام .

وأخذت المفتاح الذى أعطاه ابوها لها وهبطت السلم فى حذر تهتدى بالضوء الضئيل المنبعث من المصــباح الزيتى الصغير وقد وضعت يدها أمام الشمعة لكى لا تنطفىء .

وبلغت صالة الطعام والساعة تدق الثانية عشرة ، وأغلقت الباب خلفها فى صمت ، وســارت فى عزم واصرار الى الغرفة الثانية ، وهناك وضعت المصباح فوق المائدة ثم نظرت حولها فى تحد ، وشيئا فشيئا تعودت

عيناها على الظلمة التى لم يستطع ضـــوء المصباح الضعيف ان يبددها . ووضعت المفتاح فى قفل الدرج فدار معها بسهولة ، ولم تلبث ان رات امامها حزمة من الاوراق ملفوفة بشريط احمر فأخذتها بدون تردد وفتحتها ورات فى احداها ما يقرب من خمسين اسما وعنوانا مذيلة بهذه العبارة .

« يجب على هؤلاء الاشخاص التجمع فورا بالمخزن الكائن خلف كنيسة سان جان دولن بجوار المقبرة » .

وبعد ان تاكدت لينورا ان الاوراق الباقية عبارة عن كشوف بها اسماء وعناوين اخرى اعادتها الى وضعها الاول ولفتها بالشريط الاحمر ثم وضعتها فى صدرها واغلقت الدرج وسارت نحو الباب تبغى العودة الى غرفتها عندما سمعت خطوات متلصصة فى الدهليز . واطفات المصباح على الفور وقد خطر لها ان لورنس فان ريك هبط لياخذ الاوراق ويضعها فى مكان امين . وجمد الدم فى عروقها وخيل لها ان قلبها قد توقف عن الحركة . وتتابعت الثوانى وقد التصقت بالحائط خلف الباب على امل ان تتسلل الى الخارج خلسة اذا مادخل احد ... وازدادت الخطوات اقترابا وفتح الباب فجاة ووقف بعتبته رجل بادى الشر ، لم يلبث ان دخل واغلق الباب خلفه واوصده بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبه . واحست لينورا بقواها تتخلى عنها فقد وقعت فى الشرك . ولم يكن هناك شك فى انها اصبحت الآن تحت رحمة هؤلاء الرجال القساة الذين اطلعت على سرهم .

وسار الرجل الغريب الى النافذة فرفع الستائر ثم فتح مصراعيها . وتسلل نور الحانة المواجهة فامتلات الغرفة بضوء خافت عرفت لينورا على نوره زوجها . وتحول مارك اليها وهو فى مكانه امام النافذة وهتف

يقول مداعبا فى صوت لا ينم عن اية دهشة :
ــ حسنا ياعزيزتى ... ما كان ليخطر لى ان القاك هنا .

ولم تدر لينورا بماذا تجيب لفرط انفعالها. واضطربت يداها وبقيت مكانها لصق الحائط مصطكة الاسنان شاحبة اللون كما لو كانت ميتة ، ولكنها مع ذلك راحت تحمد الله على ان الوافد لم يكن غير زوجها مارك فانها كفيلة بان تصلح الاوضاع معه .

واخذ الشاب يتاملها فى صمت . ما كان اجملها على الرغم من امتقاع لونها . واجابت لينورا وهى تحاول ان تتمالك جاشها .
ــ جئت ابحث عن كتاب صلواتى لم اجده عندما هممت بالنوم وحسبت اننى تركته هنا .
ــ وهل وجدته ؟
ــ كلا . ولكن لا ريب ان اينيز تعرف مكانه . هل لك ان تفتح لى الباب ؟
ــ بكل سرور . لقد اغلقته لاننى لا احب ان ارى بيير العجوز فى اعقابى ، فهو يراقبنى فى اغلب الأوقات عندما اعود متاخرا .
وبسط يده اليها واستطرد :
ــ ولكن دعينى احمل عنك هذا المصباح فان يدك ترتعش ، وقد يلوث الزيت ثوبك .
فقالت : ــ ان التيار قد اطفاه فهلا اشعلته لى لكى اصعد الى غرفتى ؟
ــ كنت اوشك ان اسالك السماح لى بمرافقتك .
ــ هذه مكرمة منك ، ولكنى اعرف الطريق .
فقال مارك فى هدوء : ــ كما تشائين .

وكانت عيناها قد تعودت على شبه العتمة المخيمة على الغـــرفة فامكنها ان تلاحظ غرابة الملابس التى يرتديها زوجها ، فهو على الرغم من انه يعنى فى العادة بمظهره ولا يرتدى الا كل ما هو ثمين وانيق فقد راته فى ذلك الوقت يرتدى ثيابا خشنة لا تليق به ويغطى قدميه بحذاء جلدى طويل تعلوه الأوحال . وكانت ثيابه مبتلة ووجهة مضطرما كوجه سكير مملوء بغضون مبكرة ظـــاهرة .

تذكرت لينورا حديث اينيز عن زوجها وعن ســـوء سلوكه . . . كلا ، انها لن تستطيع ان تعيش بعد الآن مع هذا الرجل تحت سقف واحد . انها لا تحقد على هذا الفاسق الماجن الذى لا يعـــرف معنى التمرد ولا الكفر ولا يمكن ان تحقد كذلك على لورنس الذى يحبها خفية ولكنها كانت تزدريهم كلهم وتشكر الله على أنه أرشدها الى الطريق القويم وهو طاعة أبيها والاخلاص للوطن ، وبدا لها الواجب اشد وضوحا عن ذى قبل ، وكان واجبها هو انتعود الى أبيها وتذكر لهكلماتعرف، ثم تذهب بعد ذلك الى سيجوفيا وتعتزل فى الدير لتنسى فيه مأســاتها .

وبينما كانت واقفة هكذا تستعد لمواجهة العاصفة التى أحست بدنوها بقى مارك مكانه صامتا جامدا يحدق فى زوجته . واستولى عليها قلق مبهم لم يكن مبعثه خوفها من ذلك الرجل الغريب الغامض ولكن كان مرده نظرته الباردة المتفحصة ، وكأنه كان يريد ان يستشف خبايا أفكارها . وولدت فيها شخصية مارك الغامضة شعورا غريبا بالوجل وقالت أخيرا :

ـــ أيها السيد ، انك تركتنى طوال اليوم وفضلت

على صحبة رفاقك الماديين ، واعلم ان هذا حقك ولكن الوحدة تحمل المرء على التفكير وقد ظهر لى أن العيش معك فى مثل هذه الظروف استشهاد مستمر .

فأجاب مارك : — أخشى أن أقول اننى لا أفهمك . وفيم هذا الاستشهاد ؟

— يكفى أنك هجرتنى منذ اليوم الأول لزواجنا . اعلم ياسيدى انه لا رغبة لى فى ان اكون عرضة لشكوك اهلك وشبهاتهموموضوعا لسخرية مواطنيكوتندراتهم.

— انك على حق ، ولكنى لا أخطىء اذا قلت انكانت وحدك التى سعيت الى هذه الوحدة . الم تذكرى لى امس كما ذكرت منذ خمس دقائق ان صحبتى تثقل عليك .

— كنت متعبة بالامس وكنت على استعداد لتغيير موقفى ولكنك استكبرت وتعاليت . اما الآن ، فهل يخطر لك حقا اننى احب ان ابقى برفقة سكير عربيد .

كانت لينورا تبذل مجهودا خارقا لكى تغلظ فىقولها، وكانت تتوقع منه أن يغلظ لها القول هو الآخر ، ولكنه انفجر ضاحكا وقال :

— اذن فهذا صحيح ياملاكى الصغير ... تحسبيننى مدمنا ؟ ... يالها من مزحة .

— هى مزحة بالنسبة لك يا سيدى ولكنها ليست كذلك بالنسبة لى . كان يجب ان تخجل من نفسك لتصرفك معى فاننى لم اسع الى هذا الزواج كما تعلم. ان ما تفعله انما دليل على خسة نفسك وجبنك .

— هو كذلك ، وانه لشرف كبير أن تتنازلى وتتحدثى الى فاننى لست جديرا باهتمامك . ولكن دعينى أؤكد لك اننى ، على الرغم مما تقولين : لست مدمنا على الاطلاق .. هل تسمعين ؟ ... على الاطلاق .

ورق صوته وهو ينطق بكلماته هذه واستطرد يقول:
ــ تعالى يالينورا . اطرحى عنك هذه الأفكار السوداء وتعالى اجلسي لحظة . أرى انك متعبة سابحث لك عن كاس من النبيذ .

واخذ يدها واجلسها على مقعـــد كبير أمام الموقد ثم قال :

ــ واأسفاه . لقد خبت النار . هل تشعرين بالبرد ؟

لم تنطق بكلمة . وجاءها بطاولة صغيرة وضعها تحت قدميها ثم أخذ مقعدا وجلس فوقه بعيدا عنها وقد ألقى مرفقه فوق ركبته واخفى وجهه فى يده . وأحست لينورا بشىء من الارتياح وسرت فيها رعشة من الراحة ، تلك الراحة التى سبق أن سرت فى بدنها مرة او مرتين فى حضور زوجها واخذتها به رأفة فانه لم يسع بدوره الى هذا الزواج ثم انها لم تكن واثقة من أن سوء تصرفه هو السبب فى هذه التجمدات المبكرة .

وقال فى مرح :
ــ ارى انك احسن حالا الآن . ساحاول ان اترجم الافكار الخطيرة التى تدور فى رأسك .
ونظر اليها مفكرا لحظة ثم استطرد :
ــ كنت تريدين ان تصارحينى برغبتك فى العودة الى ابيك . . للاقامة لديه بعضا من الوقت ، اليس كذلك ؟
فاجابته الاسبانية دون أن تضطرب :
ــ هذا صحيح .
ــ اعلمى اذن يالنيورا ان مجرد الرغبـــة ان هى الا امر بالنسبة لى . ستكون الجياد على أهبة الرحيل غدا صباحا ويشرفنى ان ارافقك حتى بروكسل .
ــ أنت يا سيدى ؟

ـــ بكل تأكيد . اننى لاقدم على المستحيل من اجلك . ثم ان الرحلة الى بروكسل ليست بالأمر الخطير .

ـــ هل تظن ذلك ؟ . . . ولكن يجب ان اعد حقائبى اولا .

ـــ هذا امر ثانوى . ساصدر اوامرى لجان لكى تعاون اينيز . وسوف ترسلان الحقيبة فى عربة البريد وسيكون بينك وبينهما يومان وهذا امر سهل ، وسوف تاخذين معك الشىء الضرورى فقط فتضعينه فى مخلة السرج ، يجب ان ننطلق مبكرين لكى نكون فى بروكسل عند دخول الليل .

ـــ ولكن لا داعى للاسراع .

ـــ هكذا ؟ . . . يمكننى ان ارافقك حتى الوست اذن ، ومن هناك نبعث برسول الى ابيك لكى يخف للقائك فى اليوم التالى .

عضت لينورا شفتيها وهى ترى زوجها متلهفا على التخلص منها وكادت تبكى كمدا . واوشكت من فرط اضطرابها ان تنسى عزمها على اللحاق بابيها فى اسرع وقت وقالت فى لهجة تدعو للرثاء :

ـــ لن استطيع السفر فى وقت مبكر لاننى ساكون متعبة ، فان النهار يوشك ان يطلع .

وفى هذه اللحظة دقت الساعة النصف بعد منتصف الليل فقال مارك بغير رحمة :

ـــ سوف تكفيك بضع ساعات من الراحة ، واذا كنا لن نذهب الى ابعد من الوست فيمكننا ان نرحل عند الظهر .

ادركت لنيورا ان كل كلمة من كلمات زوجها كانت بعيدة عن الاهتمام والرقة وانها تعبر عن وقاحة

متعمدة وخامرها شعور كريه بانها لم تعد اكثر من العوبة بين يدى غريم اشد منها قوة وشكيمة ولجأت الى الوسيلة الممكنة وهى موقف المرأة التى جرحت فى كرامتها والتى لا تريد الاعتراف بالهزيمـــة . فنهضت فى اباء وشمم كما تفعل الملكات ونظرت الى مارك نظرة تحد ثم قالت فى برود يكذبه اضطراب صوتها .

ــ اننى اشكرك يا سيدى . ليكن كل شىء معدا فى وقت مبكر من صباح غد فاننى اريد ان اكون فى بروكسل قبل دخول الليل .

نهض مارك بدوره ولم يحاول ان ينطق بكلمـــة . وبعد ان اشعل لها المصباح بقداحته ذهب الى الباب ففتحه ومرت لينورا امامه شامخة الراس وتلامست اصابعها وهى تأخذ منه المصـــباح . كانت اصـــابعه مضطربة أما اصابعها هى فكانت باردة كالثلج .

وتابعها مارك بعينيه بدون أن ينطق بكلمة ، وعندما اختفت دخل الغرفة واغلق الباب خلفه ثم اشعل شمعة وضعها فوق المائدة واخرج من جيبه حلقة من المفاتيح واسرع الى درج المكتب ففتحه والقى نظرة داخله ثم اغلقه .

وبقى مكانهمدة طويلة بغير حراك وذقنه فىتجويفيده وقد غرق فى لجة عميقة من الافكار . واخيرا هز كتفيه ونصب قامته والقى براسه الى الخلف فى تحد وكبرياء .

واخذ الشمعة وسار نحو الباب ، ولكنه وقف بعتبة غرفة الطعام ونظر خلفه . بداله ان المقاعد والمـــائدة والمكتب يهزأون به فى جمودهم المـــادىء فقد شهدوا المصاب الذى حل ببيته وباهـــله غير قـــادرين على التدخل . واحس مارك بدمه يغلى من الغضـــب .

وافلتت من بين شفتيه سبة والقى بالشمعدان الثقيل فوق الارض . وتدحرجت الشمعة الى ان بلغت قدميه فداس عليها فى حنق وهو لا يفكر فى حماقة الحركة التى اقدم عليها . وكأن هذه الحركة قد ازاحت عن صدره عبئا ثقيلا لأنه أحس بعدها بارتياح كبير . وهز راسه وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة وتمتم يقول :

ــ ما اغبانى ... يجب على ان استميلها قبل اى شىء آخر ، وليس امامى غير اربع وعشرين ساعة لكى ...

وخرج واغلق الباب وابتعد وهو غارق فى افكاره .



الفصل الرابع

بين الواجب والعاطفة

عندما الفت لينورا نفسها وحدها فى غرفتها جعلت ترتب المشاعر المتناقضة التى تجتاحها ، فقد أهاجها الهوان الجديد الذى تعرضت له واذلها انها اقدمت على الخطوة الاولى فى سبيل الصلح فعوملت بوقاحة ليس لها نظير . ومن ناحية اخرى فقد تأكد لها ان زوجها لم يشترك فى التآمر ضد الدوق الفا ، وملأها هذا الاقتناع بسرور خفى لم تستطع تحليله .

وثمة امر آخر ملأها سرورا هو انها سترحل الى بروكسل بعد ساعات قلائل فترى اباها وتغادر هذا القصر ولا تقوم بعد ذلك بهذه المهمة البغيضة الا وهى مهمة الجاسوسة .

هى لينورا دى فارجاس جاسوسة ! .. شد ما تبغض هذه الكلمة وشد ما تبغض العمل الذى اقدمت عليه . وانها وعدت اباها ان تطيعه طبعا ، وابوها هو رسول الملك والوطن ولكنها كانت لاتزال طاهرة الذيل ، نقية النفس فما كادت تمر ساعة على العمل الذى اقدمت عليه حتى ادركت مدى بشاعته وخسته ، ولهذا حمدت الله على ان هيأ لها هكذا ،

وفى ذلك الوقت القصير مغادرة هذه البلدة التى يوشك شرفها أن يتلوث فيها ، ومع ذلك فانها لم تكن قد فرغت من مهمتها بعد .

اخذت الاسبانية شمعدانين واستعانت بالمصباح الزيتى فاشعلت شمعتيهما وبعد ذلك اخرجت من حقيبة صغيرة قلما واوراقا وشمعا احمر وجلست واخذت تكتب قصة الأحداث التى مرت بها فى هذه الليلة منذ ان هبطت اول مرة تنشد صحبة حماتها الى وقوعها على الاوراق . ولم تذكر شيئا عن حديثها مع مارك ولا عن الهوان الذى تعرضت له . وفرغت مع خيوط النهار الاولى ، ولم يكن باقيا من الشمعتين غير قطعتين صغيرتين ولكن لينورا لم تحس بالتعب رغم انها سطرت بيديها اربع صفحات كبار بخط رقيق صغير . وقرات ما كتبته ونقحت بعض الكلمات ثم طوت الاوراق فى عناية وغلفتها فى غلاف ختمته بالشمع الاحمر وكتبت فوق الغلاف هذه الكلمات :

« يسلم الى الدوق جيان دى فارجاس شخصيا دون أن يفض اذا ماعاجلنى الموت » .

ونامت بعد ذلك نوما عميقا بضع ساعات . وعندما اقبلت اينيز بعد أن صحت بقليل امرتها ان تضع الاشياء الضرورية فى حقيبة صغيرة ثم تحزم الباقى . وقالت عندما رات دهشة المراة العجوز :

ـــ ان ابى بحاجة الى بضعة ايام ، وسنغادر المدينة هذا الصباح .

وبينما كانت العجوز تقوم بعملها فى صمت جلست لينورا وكتبت الرسالة التالية :

صديقى المخلص ..

طلبت منى ان ابعث اليك بهذا الخاتم اذا ما احتجت اليك ذات يوم ووعدتنى ان تفعل كل ما سوف اطلبه منك ، وانى الآن اطلب منك ان تعجل بمغادرة جنت دون اى ابطاء وان تصطحب امك معك فان خطرا شديدا يهدد حياتيكما وانى اعلم ان لكم اقارب فى هارلم واتوسل اليك ان تذهب اليهم على الفور . لا خوف على ابيك ، اما مارك فهو يرافقنى حتى بروكســـل وساحاول ان احتجزه هناك ريثما يزول الخطر .

وترددت لحظة عابسة الاسارير ثم ذيلت رسالتها بهذه الكلمات :

« ان اشتراكك انت وامك فى التآمر ضد الدوق الفا هو ما يجعل حياتيكما فى خطر » . وقرأت رسالتها فى عناية ثم خلعت خاتمها ووضعته مع الرسالة فى غـــلاف ختمته هو الآخر بالشمع الاحمر ثم استدعت وصيفتها وقالت لها :

ــ اننى راحلة الى بروكسل بعد ساعة مع الســـيد فان ريك ، وسارحل وحدى . اما انت سوف تلحقين بى فى عربة البريد مع الحقائب . واليك هذه الرسالة يا اينيز ... انها للسيد لورنس فان ريك ولا يجب ان يتسلمها الا بعد رحيلى ... عدينى بان تعطيها له قبل الظهر .

ــ اعدك بذلك يا سيدتى .

واخذت منها الرسالة وعندئذ استراحت لينورا كان عبئا ثقيلا قد خفف عنها .

ومرت الساعات الاولى من الصباح فى جو مثقـــل ومحموم . فقـــد كان لابد من ان تودع لينورا افراد العائلة . وكان المحافظ بشوشا ومجاملا . وذرفت كليمانس فان ريك الدموع ، اما لورنس فقد نظرت اليها

فى دهشة ممزوجة بالاسى واللوم . ومن حسن الحظ أن مارك كان قد مهد لها السبيل ، فقد ذكر لامه أن العادة فى اسبانيا أن تعودالعروس الى دار ابيها لبضعة أسابيع بعد قضاء اربع وعشرين ساعة تحت سقف بيت زوجها . وتقبلت أمه هذا العذر وقد احست بشىء من الارتياح ازاء رحيل المرأة الشابة ، فان الاحداث قد تتوالى على جنت ما بين لحظة واخرى ولا يدرى أحد كيف يكون الموقف بعد المأساة ، وعليه فان الدموع التى ذرفتها وهى تودع ابنة زوجها كانت بعيدة عن الاخلاص التام . وارادت لينورا ان تشكرها ولكن الزفرات خنقتها ففرت من الغرفة ، والتقت بلورنس ، وكان وحده فى الدهليز فقالت له :

— هل تذكر الخاتم ؟

واستطردت حين أومأ بالايجاب :

— سأرسله لك عما قريب . وسوف اطلب منك جميلا .

فقال لورنس : اطلبى كل ما تشائين فاننى رهن اشارتك .

غادرت لينورا وزوجها المدينة اخيرا . وكانت السماء قد امطرت طوال الصباح فلم تبدأ الرحلة الا بعد الظهر . اما العربة فكان يجب أن تتبعهما بعد قليل ولكن كان من المنتظر أن تصل بعدهما بكثير لان الطرق كانت فى حالة سيئة ، وكان من المتوقع أن تكون الرحلة طويلة وشاقة .

وكان الطريق من جنت الى بروكسل يسير فى محاذاة مجرى الاسكو طوال الفرسخين الاولين ، وكان النهر فى حالة فيضان والطريق مغمورا فى بعض الاماكن ،

ومشى الجوادان فى الوحل وامتد الطريق بعد ذلك موحلا اشبه بالارض المحروثة بسبب الجيوش وفرق المدفعية التى كانت تمر بدون انقطاع . وكلما ابتعدا عن جنت كلما رأيا آثار الاحتلال الاسبانى ، فقد وسمت القرى التى مرا بها بطابع البؤس والشقاء فلم يطالعهما غير المداخن والبيوت المتهدمة والاشجار التى قطعت من اسفلها اما لمرور الجيوش واما لاستعمالها لوقود الجنود . كان كل شىء يدل على البؤس والهجران ففى قرية ويترن بدت البيوت مقفرة والرجال القلائل الذين التقيا بهم فى شوارعها كانوا يرتدون اسمالا بالية ، وفى الميدان الكبير احاط بهما سيل من المتسولين . وامتلأ قلب لينورا شفقة وعطفا وكانت سخية فى عطاياها . وكانت تجهل طبعا ان مثل هذا البؤس والشقاء لم يكن لهما وجود منذ عشر سنوات وان المسئول الوحيد عن ذلك هو الملك فيليب الثانى واعوانه مثل الدوق الفا وابيها . ونظرت الى مارك وقالت له فى سذاجة :

— ان من المؤلم رؤية كل هؤلاء البؤساء . لقد بذل ملكنا مع ذلك كل ما فى مقدوره لاسعادهم . يجب على الثوار أن يفهموا انهم يسيرون بالبلد الى الخراب بتعنتهم الاجرامى .

فأجاب مارك فى غير اكتراث :

— نعم . يجب ان يفهموا ذلك حقا .

وتقطعت بلينورا اسباب الحديث بعد ذلك فلم تنطق بكلمة . ولما اقتربا من اسوار مدينة دندر موند قال مارك أن جواده فقد حدوة وهبط الى الارض وامسك بلجام الجواد وتقدم الى باب المدينة . واعترض احد الجنود طريقه وساله عن أوراقهما وعن جواز السفر

والتصريح الذى يسمح لهما بدخول المدينة . وكم كانت دهشة لينورا عندما قابل مارك هذا الطلب بالاحتجاجات الشديدة وتبادل الرجلال كلمات ساخرة . ومع ذلك فقد كان هذا هو الاجــراء المتبــع فى ذلك الوقت فان الثوار كانوا يلجأون دائما الى المدن يختفون فيها وكانت أوامر الدوق الفا صريحــة ، وكان على المســافرين الحصول على تصريحات كتابيةِ قبل الشروع فى السفر .

وكانت لينورا على جهل بهذه الاجــراءات ولكن ادهشتها مع ذلك أن رجلا كزوجها ، ابن موظف كبير مسئول لم يحصل على مثل هذا التصريح قبل البدء فى السفر . واذ رأت الجدال بين الرجلين يتسع خطر لها ان تتدخل لمخاطبت الجندى بالاسبانية قائلة :

ــ أنا زوجة هذا المواطن الشريف وابنة السيد جيان دى فارجاس . وساطلع ابى على وقاحتك واذكر له انك السبب فى تأخرنا .

هدأ الجندى على الفور ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن مستعدا لقبول كلمــات المرأة الشابة كحقيقة واقعة فقال :

ــ ليس مع السيد اى مستند يؤيد به ما يقول ، وليس هناك ما يحملنى على ان اصدق انه ابن محافظ جنت وانك ابنة دون جيان دى فارجاس .

فصاح مارك وقد خرج عن طوره :

ــ ولكنى قلت لك هذا ايها الحيوان .

ــ تبالك ايها الكلب الهولندى . سوف تدفع غاليا ثمن اهانتك لجندى من جنود الملك .

ورأت لينــورا ان الغريمين سيتشــابكان بالأيدى فتدخلت بينهما قائلة :

ــ اتوسل اليكما ايها السادة ... ليس امامى .

كان مسلك مارك لا يدع مجالا للشك فى نواياه الشريرة . ماذا يحدث عندئذ ؟ رات الاسبانية المستقبل فى لمحة خاطفة . السجن فى المخفر ثم الاستجواب وسوء المعاملة وربما الضرب المبرح ريثما يتم الاتصال بالمحافظ او بابيها . ولن يتم هذا قبل يومين او ثلاثة فراحت تهدىء من حدة الجندى واستطاعت بما اوتيت من لباقة ورقة ان تستميله وان تقنعه تقريبا بانها حقا ابنة جيان دى فارجاس بحيث راى ان يتخلص من مسئولية هذا الحادث فسمح لهما بدخول المدينة قائلا :

ــ بمكنكما قضاء ساعتين فى المدينة ولا اكثر . اما اذا رايتما قضاء الليلة فلابد من الحصول على اذن من المحافظ .

تفوه مارك ببضع كلمات متذمرا ولكنه لم يلبث ان هدا وامسك بلجامى جواده وجواد زوجته ودخلا المدينة . وبعد ان اجلس زوجته امام المدفاة بحانة « الشباب المرح » طلب من صاحب الحانة وزوجته ان يعنيا بها ثم خرج ليبحث عن احد الحدادين .

ودقت الساعة الثالثة فى ذلك الوقت ، وكانت الحانة تكاد تكون مقفرة ، فقد جلس رجلان فى ركن قصى يلعبان النرد وجلس فى مكان آخر غير بعيد عنهما جندى راح فى نوم عميق . وكان صاحب الحانة رقيقا لطيفا فوضع أمام النيران مقعدا كبيرا مريحا والقى فى المدفاة ببعض الحطب وجاءت زوجته باناء كبير من اللبن الساخن وبضع شرائح من العيش .

وشربت لينورا واكلت وقد فتح التعب شهيتها ... وعندما فرغت اضطجعت فى مقعدها الى الوراء ولم تلبث أن نامت وقد غلبها التعب .

وقلب المراة متقلب بطبيعته ، فطالما تمنت فى ذلك اليوم ان يقع ما يؤخر الرحيل ، وقد تطلعت فى الصباح الى السماء فى قلق وهى ترجو فى قرارة نفسها أن يشتد هطول المطر بحيث يتعذر التقدم او تتحطم الجسور ثم تعود بها افكارها فجاة الى الامير اورانج والى رجاله الذين يتاهبون لقلب نظام الملك فتلمن ترددها وتزدرى جبنها أمام الخطر وتتعجل الرحيـل مدفوعة بالواجب نحو الملك والوطن ثم لا تلبث أن تعاودها افكارها الاولى فتحس بسعادة خفية وهى ترى الطرق الموحلة تعرقل تقدمهما وتكاد تجعله مستحيلا .

وهكذا نامت موزعة بين افكارها المتعارضة . واذ راى صاحب الحانة انها راحت فى سبات عميق وضع امامها ستارا يحجبها عن الانظار . وكان الجندى لايزال يغط فى نومه والرجلان الآخران يلعبان النرد .



الفصل الخامس

اعـــداء

عندما صحت لينورا من نومها رات مارك جالســـا على مقعد منخفض بجوارها وقد مدد ســـاقيه نحـــو النيران ، واضطرم وجهها عندما رات الشاب ينظـــر اليها وسالته :

ـــ هل حان وقت الرحيل ؟

ـــ ليس بعد .

ـــ كم الساعة الآن ؟

ـــ الحق انني لا ادرى .

ـــ وجوادك ؟

ـــ لايزال عند الحداد فان لدى هذا الاخير جيادا كثيرة ولم يات دوري بعد .

فهتفت فى جزع :

ـــ ولكننـــا تاخرنا كثيرا ، فهل نسيت انه يجب ان نبلغ بروكسل قبل الليل .

ـــ كلا . ولكنى اخشى ان لا نتمكن من ذلك فـــان المحافظ ابى لن يصرح لنا بمغادرة المدينة مالم نثبت له اننا لسنا من جواسيس الامير اورانج .

ـــ انك انت الذى تسببت فى كل هذا يا سيدى ، فلو انك لم تنس جواز سفرك لكنا الآن بعيدا .

ـ يؤسفنى حقا اننى تسببت فى كل هذا .

نظرت الفتاة الى زوجهـا واوشـكت ان تبكى ذلة وهوانا وهى ترى ما ارتسم فى عينيه من سخرية ، وعضت على شفتها وامسكت فترة ثم صاحت :

ـ لا تحسبنى لم افهم خبثك يا سيدى ، فانت الذى دبرت كل هذه المهزلة منذ رحيلنا ، او لعل ذلك قبـل رحيلنا . ان نزاعك مع الجندى ومسالة حدوة الحصان ما هما الا ذريعة لبقائنا فى هذه المدينة . هل تجرؤ على انكار ذلك ؟

فأجابها مارك فى هدوء :

ـ ولكن لم الغضب يالينورا ؟ ... الســنا على ما يرام هنا ؟ ... يمكننا ، اذا اردت ان نزور الكنيسة غدا فانها آية فى الروعة والبناء .

ـ اسكت ايها الوقح ؟

ـ هل اكون وقحا لاننى لا اريد ان ارى مأساة فى تاخير بسيط لن يتجاوز بضع ساعات ؟ ولم لا اكون اسعد الرجال يالينورا ؟ ... فها هو ذا حادث عارض يجعلنى اقضى ليلة باكملها معك . اليس هذا رائعا ؟

ـ اوه ... لو انك تعنى ما تقول حقا لبقيت معى امس بدلا من ان ...

ـ كنت بالامس احمق مافونا يالينورا . اما اليوم فقد اصبحت عاقلا .

ـ آه . آه ... ما الذى غيرك هكذا ؟

ـ غيرتنى الدقائق العشر التى قضيتها معك امس فى غرفة الطعام .

لم تجب لينورا ، وساعدها الظلام فلم يلحظ الشاب اضطرام وجنتيها وبريق عينيها واقلبت صاحبة الحانة

فى هذه اللحظة ووضعت مصباحا فوق المائدة ثم انصرفت على الفور . وخيم صمت مطبق .

استولى على لينورا خدر غريب استسلمت له وقد اغمضت عينيها نصف اغماضة وغمر قلبها سرور خفى ، واحست بعينى زوجها تحدقان فيها كما لو كان يريد أن يستشف خبايا نفسها وحمدت الله على أنه أرسل اليها أخيرا ناصحا ومرشدا يرشدها الى ما يجب أن تفعل للخروج من هذه المحنة التى اوقعها فيها ذلك العمل البغيض الذى اقدمت عليه بايعاز من أبيها ، فقد كان الناس فى ذلك العهد من الايمان القوى والتعصب الشديد والخرافات التى لا نهاية لها ينسبون أى حادث الى تدخل الله أو الشيطان . وكانت لينورا بما جبلت عليه من طاعة لابيها واخلاص لمبادئها تعتقد أن مهمتها مقدسة ولكن الامر بلغ بها مع ذلك الى التساؤل عما اذا كانت هذه الرحلة مطابقة للارادة الالهية . وبدا لها أن العوائق التى التقت بها فى الطريق تدل على ذلك . ولكن من يدرى لعل الشيطان نفسه، متمثل فى شخصية مارك هو الذى يبذر كل هذه الأحابيل . والحق أن نظرة زوجها كانت تنطق بالخبث والوقاحة بحيث أن الشك بدأ يتغلغل فى نفسها ورأت انه لابد لها من توخى دواعى الحرص والحذر فقالت فجاة بلهجة محنقة :

ــ هل اقدمت على مثل هذه الاعمال التى تدل على الجبن والنذالة قبل ذلك يا سيدى ؟

فابتسم مارك فى هدوء وقال :

ــ نعم . اقدمت على الكثير منها ، ولكنى لم احص عددها .

ــ الا تشعر بالخجل ؟

ـ الخجل ؟ ... ابدا ... ولكن بماذا تواخذينني .

ـ اوه ، لا شيء تقريبا . لا شيء فيمـــا عدا انك هنتني واذللتني واجتذبتني الى هذا الشرك وحدى ، في جوف الليل ، وفى مدينة غريبة . انك تجد هذا العمل سليما طبعا ولكنى اجد ان من الغرابة محاولة استمالة قلب امراة بمثل هذه التصرفات . انك بالامس القريب.

وتملكها الانفعال واشتدت نبرات صوتها على الرغم من محاولتها الاحتفاظ بهدوئها . وانهمرت الدموع من عنيها . واقترب مارك منها وقال متوسلا :

ـ ولكن فيم كل هذا يا حبيبتى لينورا . انك رائعة الجمال فلماذا لا تشفقين بشاب مسكين اشقاه برودك وازدراؤك .

واستطرد يقول اذا رآها تاتى بحركة من يدها تدل على الاحتجاج :

ـ نعم ، ازدراؤك ... اوه ... اعلم اننى استحق هذا الازدراء ، ولكن الم اتالم بما فيه الكفاية ؟

ـ انك مخطىء يا سيدى فاننى لم افكر فى الاقتصاص منك وارجو أن تفهمنى جيدا .. عندما تزوجتنى لم اكن احبك وانما كنت احب ابن خالى ، وقد اغتيل قبيـــل زواجي بك ... وقاتله واحد من مواطنيك ، صـــديق للامير اورانج .. قاتل أجير معروف باسم « ذو القناع الجلدى » .

ورات مارك يبتعد عنها ويتحول الى النيران وقـــد تقلصت اساريره فاردفت تقول كما لو كانت تعتذر :

ـ اننى اعلم انك لا تشـــترك فى هذه الجـــرائم يا سيدى ، واحسب انك لم تنضـــم الى الثوار ، أن

لم يكن بدافع من الاخلاص للملك فبدافع عدم الاكتراث ولكن هل كان بمقدورى ، انا الفتاة العديمة الخبرة ان افرق بينك وبين قتلة ابن خالى المسكين ؟ ... وهل كان بمقدورى ان اسلم لك قلبى محررا من فكرة الانتقام والحقد ؟ ... كنت اريد ان أؤدى واجبى نحوك يا زوجى على الرغم من كل ذلك ولكنك لم تساعدنى . بل على العكس نبذتنى وصددت قلبى عنك ببرودك ووقاحتك فاننا نحن الاسبان لا نعرف ان نعيش مثلكم بغير مودة وبغير كلمات الحب . وما انقضت على فى بيتك ساعة واحدة حتى احسست بقلبى يجف ويطالب بما لم تستطع ان تمنحه اياه .

فقال مارك من غير ان ينظر الى زوجته :

ـــ سامحينى ياليونورا فقد كنت اعمى .

وكان فى صوته رنة من اليأس هزت كيانها فقالت فى صوت يكاد يكون كالهمس :

ـــ اننى لا احقد عليك يا سيدى ... لا استطيع ان احقد عليك ولا على اخيك لورنس فقد كان كريما معى . اننى لا احقد الا على الامير اورانج واصدقائه ، كما احقد على كل الذين يخونون الملك الذى احسن اليهم .

لم يستطع الشاب ان يتمالك نفسه عندما سمع هذه الكلمات فأخذ يدى ليونورا فى يديه وصاح قائلا :

ـــ ليغفر الله لك ياليونورا ، فانك لا تدركين ما تقولين . اننا نحن ايضا بشر مثلكم ، ناكل ونشرب ونغنى ونحب كما تفعلون انتم ، وان لنا عيونا ترى البؤس الشديد الذى لحق ببلادنا بسببكم .

هل يرضيك ان ترى غازيا يطأ بلادك بقدميه ؟ ... هل يرضيك يا زوجتى الحبيبة أن يأتى امبراطور المانيا ويفرض قوانينه ومعتقداته على شعبك ؟ ... وان ينهب الجنود بيوت مواطنيك ويدمروا بلادكم ويسبوا نساءكم ؟

وضحك ضحكة تنم الشراسة واستطرد :

ــ تقولين الملك الذى احسن الينا ؟ ... بماذا ... لتسمين السلب والنهب والدمار اللذين يصلينا بهم احسانا ؟ ... اتسمين اعدامه للابرياء كل يوم احسانا ؟

حاولت لينورا ان تسحب يديها ولكنه شدد الضغط عليهما بين يديه ، فقالت فى وجل وقد اثرت عليها كلماته :

ــ انك على حق فى ثورتك يا سيدى ، ولكنهم مع ذلك قتلوا رامون ولن يحجموا عن قتل الدوق الفا ... وابى ...

لم ينطق مارك . لو انها لم تتكلم عن ابيها لبين لها ان القتل يكون احيانا لاسباب نبيلة . ولكنه ترك للزمن ان يبين لها ذلك . ورثى لسذاجتها وبراءتها واحس برغبة طاغية فى ان يحتويها بين ذراعيه ويذهب بهما الى بلد ناء بعيد لا يعرف الدسائس ولا المكائد ، بلد بعيد عن الاستبداد والبؤس . وبتناقض غريب ود ان يجعلها تلمس العذاب الذى ذكره فى حديثه لعلها تدرك كم هو على حق .

اخذت افكار لينورا نفس الخط الذى تسير فيه افكار زوجها ، فان كلمات مارك المضطرمة جعلتها تعتقد انه على غير ما يتظاهر به من عدم اكتراث ومبالاة واقتنعت

بان له قلبا هو الآخر .. قلب يحس ويتالم كقلبها ... انه يفهم بؤس مواطنيه ويدافع عنهم ويتفوه بالفاظ تقطر حقدا على الطغاة والعجيب انها لم تشعر باى حقد على مارك فى هذه اللحظة وحدثت نفسها بانه اذا كان يدافع عن الهولنديين هذا الدفاع الحار فلا ريب ان قضيتهم عادلة ولعل الاسبان على خطا .

واحست بحاجتها فى ان تبث هذا الرجل اسرارها وتسرد عليه قصتها ؛ منذ الوعد الذى قطعته على نفسها لابيها حتى السمل البغيض الذى اقدمت عليه فى الليلة الماضية . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ ... وبعد صمت قصير زفرت زفرة حارة وقالت فى صوت خافت :

ـ اننى غبية يا سيدى ولا استطيع مناقشتك فاننى قضيت حياتى حبيسة الدير ولا اعرف العالم الا قليلا . وما عرفته عن بلادك انما نمى الى من اشخاص لا يحبونها . اننى حقا امراة غريبة هنا .

فابتسم مارك واجاب :
ـ هذا صحيح يالينورا ... ولكنك سوف تعرفين كل شىء قريبا .. ان هولندا بلد صغير وان اعز امانى هى ان آخذ بيدك ذات يوم وارشدك خلال دروبها ومسالكها المجهولة ... ان فيها دمامة وفيها جمالا ... وساريك كل ما فيها من جمال .

لم تستطع لينورا ان تصدق اذنيها ... هذا الذى يتكلم ، اهو الفاجر الفاسق ربيب الحانات ؟ اهو الرجل الذى صدته عنها ازدراء واحتقارا ليلة زفافهما ؟ ... انها لتصغى اليه الآن وتستمع الى كل كلمة من كلماته

فى اهتمام كبير وتتمنى ان يدوم هذا الحديث بينهما ساعات وساعات . وتاملت فى صمت ملامحه الخشنة وقامته المديدة العريضة واحبت رنة صوته الممتلئة انه بروق لها الآن فلا رابط بينه وبين الخونة والقتلة .

واحاط خصرها بذراعه فاسلمت قيادها له وقال وهو يضمها اليه :

ــ لينورا ... اى زوجتى الحبيبة ؟ هل تعرفين ماذا يقول البلبل لانثاه ؟

فقالت متظاهرة بالجهل :

ــ كلا . خبرنى بما يقول :

ــ انه ينشد لها « اننى احبك ... اننى احبك .. »

فتنهدت قائلة : ان الطيور يمكنها ان تذوق السعادة ، اما أنا ؟ ...

ــ انت ايضا يا حبيبتى . الا تسمعين خفقات قلبى قريبا من قلبك ؟ ... فلننس الماضى ... فكرى فى المستقبل يالينورا فسوف يكون جميلا ... اعطنى شفتيك يا حبيبتى .

نسيت الاسبانية فى هذه اللحظة كل شىء ... نسيت موت دون رامون والقسم ، والخطر الهائل الذى يهدد الدوق الفا والمؤامرات والثوار وكل شىء . فيم يهمها كل هذا وفيم تهمها الدنيا كلها ازاء نداء الحب الساحر الرقيق ؟ ... وادارت وجهها فى بطء صوب وجه زوجها واغمضت عينيها نصف اغماضة وبسطت اليه شفتيها فى انتظار القبلة الاولى . ولكن وقع فجاة مالم يكون فى الحسبان .

كانت الساعة قد بلغت السادسة ، وكان الميدان

الكبير ساكنا ولكن ارتفعت فجأة صيحات حادة اطلقتها امرأة واعقبتها لعنات وشتائم صادرة من رجل . ونهض مارك بحركة لا شعورية وزادت حدة الصيحات والشتائم . وسألته لينورا فى خوف :

ــ ما الخبر ؟

فاسرع الشاب يقول : لا شىء ذا بال ... لا ريب انها امرأة اساء الجنود معاملتها فى الشارع ، وغالبا ما يكون ذلك بداية لمعركة عامة فاننا قد اعتدنا على هذا .

وكان قد بلغ منتصف القاعة فنهضت لينورا بدورها وقالت : اين تذهب ؟

فتحول وقال :

ــ الى الشارع . الا تسمعين صيحات المرأة التى تنطق بالكرب ؟

ــ ولكن ماذا يمكنك ان تفعل ؟ ... انهم جنود ولا يمكنك ان تتدخل ، فانت هولندى .

ــ انك على صواب ... انا هولندى والمرأة التى تستغيث هولندية .

وبلغ الباب فى خطوتين . ولكنها كانت اسرع منه فتشبثت به قائلة :

ــ لا تخرج يا سيدى ... اننى اتوسل اليك .

ــ دعينى يا حبيبتى ولا تخافى . اننى احتككت بالجنود كثيرا ، واننى اعرفهم ... انهم لا يضمرون شرا فى اغلب الاحيان . سأسوى ذلك وسوف ترين .

ــ ولكن الجميع فى جنت يعرفونك ... اما هنا

... ربما يكون بين القوم بعض رجال ديوان التفتيش، واذا راوك تتدخل لصالح احد الثوار ... ان اناسا كثيرين اعدموا لاقل من هذا .

فابتسم ابتسامة مريرة وقال :

— ليس هناك من يعلم ذلك خيرا منى ، وهذه هى حسنات الملك فيليب الزائد الكرم ، والذى احسن الينا .

ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات التى افلتت منه رغما عنه حتى أحس بالندم فقد اغرورقت عينا لينورا بالدموع . واراد ان يكفر عن ذلك فتمتم فى رقة : « ليباركك الله يا حبيبتى ، ولكن دعينى اذهب بحق السماء . ساعود بعد بضع دقائق » .

وخرج وهو يجرى واختفى فى الظلام . وترددت لحظة ثم اسرعت تركض خلفه من غير معطف ومن غير قبعة .

وكان الميدان الكبير مقفرا ، وكان النور ينبعث من نوافذ قلائل واسرعت لينورا صوب الناحية التى تصدر منها الجلبة وهى لا تدرى ماذا تفعل . ادركت أن مارك يتعرض للخطر ، وارادت أن تكون الى جواره لتدرا عنه . وفى ذلك العهد كانت الشبهات العامة تثقل على اهالى البلاد المنخفضة . وكان يكفى ان تقوم معركة ولو تافهة مع جندى اسبانى ليتعرض صاحبها الى فظاعة العدالة الاسبانية المفرطة القسوة . وكان رجال ديوان التفتيش منبثين فى كل مكان ، واذا حدث ورأى احدهم شخصا يتحزب لرجل تشتبه السلطات فى انه من الالحاديين فانه يسرع ويبلغ عن ذلك الشخص الاحمق الذى يخشى ان يجهر برأيه .

وفى وسط الصيحات والأوامر الصـــادرة والسباب عرفت لينورا صوت زوجها . كان الشـــاب يتكلم مع النســاء بالهولندية ومع الجنود بالاســـبانية . وفهمت انه يستفسر عما حدث ويحاول تهدئة الجميع . وكان الحادث يتلخص فى ان امراتين عائدتين من عملهمـــا هاجمهما بعض الجنود فملأتا الدنيا صياحا ، وخرجت بعض النســوة من البيوت المجاورة لمساعدتهما .

وكانت المعركة فى اوجها عندما تدخل مارك .وماهى الا دقائق خمس حتى كان مارك قـــد افلح فى تهـــدئة النفوس ولكنه لم ينج مع ذلك من ضربة أو ضربتين . وتفرق الجميعاخيرا وسمعت لينورا احدالرجال يخاطب مارك بالاســبانية قائلا :

ـــ اننى لا اعرفك يا صاحبى ولكنك رجل كريم . وقد اصبت بقولك ان القومندان اصدر امرا بمنع احداث اى شغب أو ضوضاء وشكرا لك . تعال معنا لتناول كاس فى حانة « الدوق الكبير » .

ـــ اشكرك يا صاحبى . اننى مقيم بحانة « الشباب المرح » ويجب ان اعود الآن فورا لمسالة هامة . . . ربما فى وقت آخر .

ـــ كما تشاء يا صاحبى .

وكانت لينورا واقفة فى الظلام وتحولت لكى تعود ادراجها قبل ان يراها زوجها عندما سمعت بضـــع كلمات سمرتها فى مكانها ، فقد سمعت الجندى يقول :

ـــ ولكنك جريح يا صاحبى .

فاجاب مارك : انه خدش بسيط ، ولا اشعر باى الم .

ــ لا تشعر باى الم ؟ ... ولكنك تدمى .

ــ قلت لك انه خدش بسيط . طابت ليلتكم جميعا .
فردوا عليه قائلين : وليلتك ايها الصديق .

وابتعدت خطوات الجنود فى الظلام . وسمعت لينورا زوجها وهو يقترب . وكانت واجفة القلب ، موزعة بين خوفها من ان يكون جرح زوجها اشد خطرا مما يدعى وبين رغبتها فى العناية به ومواساته وتكريس حياتها له . ولكنها راته يتقدم فى بطء مع انه خرج منذ لحظات من الحانة وهو يركض . وبرز من الظلام ووقع عليه ضوء احدى النوافذ وراته يقف بجوار الجدار وهو يترنح فاسرعت اليه قائلة :

ــ هل انت جريح ؟

وما ان سمع صوتها حتى بذل مجهودا جبارا ليعتدل ثم هتف مشدوها ومسرورا فى آن واحد :

ــ لينورا ... ماذا تفعلين هنا بحق الشيطان ؟

فاجابت فى ارتباك وقد احمرت وجنتاها :

ــ اوه ، اننى سمعت الضوضاء وخشيت عليك .

ــ كانت مشادة تافهة ، وما كان ينبغى ان تخرجى.

وكان صوته ضعيفا واهنا فعادت تقول :

ــ ولكنك جريح ؟

ــ جريح ؟ ... اوه ... انه خدش بسيط .

ـــ هل تستطيع السير حتى الحانة ؟ . . . هل اذهب فآتيك بنجدة ؟

ـــ كلا . كلا . انني لست طفلا صغيرا . يكفى ان تساعديني .

وبسط لها ذراعه الايمن ، ولاحظت انه يخفي ذراعه الايسر خلف ظهره في اصرار . وتقدما في صمت وهما لا ينطقان .

وكان بينهما وبين الحانة ما يقرب من مائة متر . وعندما بلغاها رأيا صاحبة الحانة بالباب تنتظر قدومها فطلبت لينورا منها ماء ساخنا ومناشف من القماش الناعم . وكانت القاعة مقفرة والنيران تضطرم في المدفأة ، فتحولت المرأة الشابة الى زوجها وقالت :

ـــ ستاتي صاحبة الحانة ببعض الماء الساخن وساعنى بك بنفسى .

ـــ لا تزعجي نفسك بأمرى يا حبيبتى فانني لم اعد اشعر بشيء . لقد اصابتني ضربة عصا على ذراعي وهذا كل شيء .

ـــ ارنى هذا . . .

ولكنه لم يتحرك فامسكت بذراعه الايسر قسرا وجذبتها اليها . وحاول الشاب ان يقاوم ولكن الالم كان اقوى منه فاضطر الى الاذعان . وصاحت في فزع قائلة :

ـــ ان كمك مصبوغ بالدم .

ورفعت كمه في رفق وعناية كبيرتين ، ولم يلبث الجرح ان بدا امام عينيها ، وكان بالغا يمتد من الرسغ حتى المرفق .

وقالت وهى تبحث حولها عن شىء لتوقف النزف :
ــ اين ذهبت هذه المراة ؟ ... لماذا لا تأتى ؟ ...
واخذت تضرب الارض بقدمها فى صبر نافد ولم تحاول ان تبذل اى مجهود لترد دموعها .

وعادت تنظر الى الجرح وتقول :
ــ ان لى دراية بتضميد الجروح يا سيدى ، وقد ضمدت جروح الجنود المصابين فى سيجوفيا . ليس هذا جرحا حديثا ... انه جرح قديم تفتح من جديد ... لم يكن قد التأم بعد ... كأنه طعنة خنجر ... اوه ... رباه ...

اختنقت الكلمات فى حلقها وشحب لونها واستولى عليها رعب مفاجىء جمد دماؤها . ونظرت الى مارك . وكان هو الآخر قد شحب لونه وبدت ملامحه كأن الحياة قد فرت منها ، فيما عدا عينيه اللتين امتلأتا بحنو كبير ويأس لا حد له . وقرأت لينورا هذا الحنو وهذا اليأس امتزاجا رهيبا ، وسمعت نفسها تقول كما لو كانت فى حلم :

ــ اذن فهو انت ؟
وتلاشت جدران الحانة امام عينيها ، ولم تر غير حارة ضيقة مظلمة وقف فى ركن منها رجل يغطى وجهه بقناع من الجلد ، ثم رأت حبيبها رامون يتقدم فى جوف الظلام وهو لا يعرف ان الموت يترصده . ورأته يمر امام القاتل ثم يترنح وقد اصابته طعنة قاتلة ثم يتحول نحو قاتله ويطعنه فى ذراعه الايسر .

ــ اذن فهو انت ؟
والقى الشاب اليها نظرة المغلوب على امره وحاول

ان يبذل مجهودا ليؤخر الحكم المعلق فوق رأسه فقال :

ـ هل تصغين الى يالينورا اذا حاولت ان ابرر لك مسلكى ؟

ولكنها نظرت اليه فى برود وعادت تسأل :

ـ اجبنى ... اهو انت ؟

واطرق برأسه علامة على الاعتراف .

انت الاسبانية انينا طويلا وارتدت الى المائدة وتشبثت بها بضع لحظات وجسدها ينتفض . وحسب مارك انها ستقع فاقدة بحركة لنجدتها ولكنها اعتدلت على الفور وهربت من الغرفة ركضا وقد امتلأت عيناها رعبا .



الفصل السادس

الوحـــــدة

لم تذكر لينورا ما حدث لها بعد ذلك فقد اغمي عليها. وعندما عادت الى رشدها الفت نفسها راقدة فى مقعد كبير أمام موقد مازالت النار تشـــتعل فيه . ورددت البصر حولها فرات نفسها فى حجرة ضـــيقة بها نور ضعيف وفى ركن منها فتاة تقوم بكى بعض الثياب .

وسالتها الفتاة فى رقة قائلة :

ـــ هل تشعرين بتحسن الآن يا سيدتى ؟

ـــ نعم . واشكرك . ولكن هل لك أن تخبرينى اين أنا وكيف جئت هنا ؟

وفيما هى تلقى هذا السؤال عادت الى ذاكرتهـــا مناقشتها الاليمة مع مارك ، وخيل لهـــا أنه سيغمى عليها من جديد . واجابتها الفتاة :

ـــ لا ريب ان سيدتى اصيبت بدوار ، فقد امرتنى عمتى باحضار بعض الماء الساخن ، وعندما اتيت به رايت سيدتى تخرج من الغرفة راكضـة ثم تقع بعتبة الباب . وتملكنى الخوف ولكن السيد النبيل امرنى بأن

اربط فوطة حول ذراعه ثم نقل سيدتى الى هذا المقعد وقال انك ستقضين الليلة هنا . أوه يا سيدتى . ان السيد مصاب بجرح بالغ فى ذراعه و ...

فقاطعتها لينورا فى حدة : اصمتى .

نظرت الفتاة اليها فى دهشة غير مصدقة اذنيها . واستردت الاسبانية جأشها واستطردت فى رقة :

ــ لم ابلغ زجرك يا فتاتى ، وانا مازلت تحت تأثير الانفعال كما ترين ... اذكرى لى ماحدث بعد أن نقلنى السيد النبيل الى هذا المقعد .

ــ لقد اعتنت عمتى به رغما عنه . ولكنه لم يلبث أن طلب منها أن تتركه وشأنه وان تهتم بك . وبذلنا كل ما فى مقدورنا لانعاش سيدتى ولكنها ظلت على اغمائها ، واذ رأينا ذلك خطر لنا أن نتركك حتى تعودين الى رشدك طبيعيا وعدنا الى السيد النبيل ، فقد كنا شديدى الخوف عليه لأن دمه كان ينزف بدون انقطاع، وكان شاحب اللون . ووجدناه جالسا وقد فرغ من كتابة رسالة وراح يختمها ثم قال لعمتى « يجب أن أرحل الآن فورا ، وستصدر اليك السيدة أوامرها فيما يخصها هى ... ثم نقد عمتى اجرها فاعطاها رسالة لك واخذ قبعته ومعطفه وغادر الحانة فى جوف الظلام من غير أن يقول اين هو ذاهب . ولم تجرؤ على سؤاله . وقد هطلت الامطار بعد انصرافه ولم تنقطع حتى الآن ... وهو فى مثل هذا الطقس الردىء لن يستطيع قيادة جواده وذراعه مصاب بذلك الجرح الخطير .

فسألتها لينورا : اين هذه الرسالة ؟

اخرجت الفتاة من جيبها ورقة مطوية ومختومة بالشمع الأحمر واعطتها للينورا قائلة :

— امرتنى عمتى ان اعطيك اياها بمجرد صحوك.

— اهى صاحبة هذه الحانة ؟

— نعم يا سيدتى .

— وهل انت من دندرموند ؟

— كلا يا سيدتى . اننى من جنت .

— من جنت ؟ . . . وما اسمك ؟

— جريتا يا سيدتى .

وسكتت لينورا فعادت الفتاة الى عملها . وكانت لينورا تدعك الرسالة اثناء الحديث وهى تشعر بالغضاضة فى أن تفتحها واستولى عليها خوف طاغ عند رؤيتها فقد خشيت ان يكون فيها اعتراف اشد ولكن الفضول تغلب عليها ففتحتها وقرأت فيها ما يلى :

« سيدتى »

ما كنت لا تخلى عنك واتركك وحدك فى هذا البلد الغريب لو لم اقرأ فى عينيك الامر بالرحيل . اعلم انك تمقتيني ، وعندما تقرئين هذه السطور ساكون بعيدا . وسوف التقى فى الطريق بالعربة التى تنقل حقائبك ، فاننى كنت قد اصدرت امرى الى السائق بان يتوقف فى هذه البلدة وان يقضى الليل فيها . ويمكنك غدا استئناف رحلتك فى سلام وسوف يصحبك السائق حتى

بروكسل ، وقد سمحت لنفسى فوضعت فى جيبك وانت راقدة حزمة مختومة بها بعض المال الذى يخصك ... هو جزء من بائنتك ، اما الجزء الباقى فسوف يرده أبى لابيك فى أقرب وقت . وانت فى دندرموند حرة كما كنت فى جنت او فى بروكسل . ويمكنك ان تذهبى الى أى مكان . فان أوراقك واوراقى كانت مستوفاة وقد اصبت فى تخمينك عندما قلت لى ان المشادة مع الجندى وقصة الاوراق ما هى الا مهزلة مدبرة . وقد تذرعت بذلك ليتسنى لى البقاء معك أطول مدة ممكنة . واعلم انه لا طائل من ان اسالك العفو عما بدر منى وكذلك لن اسالك شيئا مما حدث فى الاسبوعين الاخيرين ،وسوف أحرص من ناحيتى على الا اهينك بحضورى طالما بقيت على قيد الحياة .

« مارك فان ريك »

تركت لينورا الرسالة تقع على ركبتيها وبقيت لحظة طويلة تفكر وهى تنظر فى الفضاء . ولما فرغت جريتا من عملها سالتها قائلة .

ـ هل تريد سيدتى تناول العشاء ؟

واضطرت أن تكرر سؤالها اكثر من مرة ، وبدا على لينورا انها تخرج من حلم عميق فرفعت راسها اخيرا وقالت :

ـ ماذا تقولين يافتاتى ؟

ـ هل تتنازل سيدتى فتتناول العشاء معنا ؟

ـــ نعم . احضرى لى قليلا من اللبن والخبز الجاف . هل يمكننى ان أنام فى هذه الغرفة ؟

فاجابت جريتا وهى تشير الى سرير فى آخر الغرفة:

ـــ طبعا يا سيدتى ، وفى هذا السرير ، اذا كان يناسبك طبعا .

ـــ نعم . انه يكفى . اننى شديدة التعب . ستأتى عربة الى الحانة بعد قليل قادمة من جنت ، ووصيفتى بها ، فدعيها تصعد على الفور .

كان صوت لينورا خافتا يكاد لا يسمع يعبر عن اعياء تام وتقزز كبير . وادركت جريتا ان شيئا يؤرق السيدة النبيلة ، ولكنها لم تجرؤ على مواساتها بكلمة واحدة وخرجت لتأتيها بالطعام الذى طلبته .

ونظرت لينورا الى الرسالة مرة اخرى ثم كورتها بين يديها فى حنق والقت بها وسط النيران .

عادت جريتا بعد قليل بصينية فوقها كوب من اللبن وبعض من الخبز المقدد والجبن ووضعتها فوق المائدة وهمت بالانصراف عندما خاطبتها لينورا قائلة :

ـــ ابق لحظة يا فتاتى . اريد ان ابعث برسالة الى بروكسل الآن حالا ، فهل تعرفين رسولا يذهب بها ؟

ـــ هناك اربعة من الرجال يقومون بمثل هذا العمل عادة يا سيدتى وساطلب من عمى ان يبحث عن احدهم .

ـــ سوف امنح من يقبل خمسة جنيهات ذهبية .

اتسعت عينا جريتا دهشة عند سماعها هذا المبلغ الضخم وقالت :

ــ خمسة جنيهات ذهبية . اعتقد ان ميشيل دانيز سوف يقبل . ان لديه جوادا سريعا .

ــ قولى لعمك اذن أن يسلمه هذه الرسالة ليذهب بها الى بروكسل ويعطيها لصاحبها قبل الساعة العاشرة .

واخرجت من صدرها الرسالة التى كتبتها ليلة الأمس وقالت :

ــ اصغى الى جيدا يافتاتى يجب أن تسلم هذه الرسالة الى السيد جيان دى فارجاس رئيس المجلس الاعلى . انه يقيم فى فندق « النجمة الزرقاء » فى الميدان الكبير ببروكسل . واذا لم تصله هذه الرسالة الليلة قبل الساعة العاشرة فسوف يلقى الرسول جزاءه .

استولى الاضطراب والجزع على جريتا عندما سمعت اسم دون جيان دى فارجاس ووقفت لاتستطيع حراكا كما لو كانت قد سمرت فى الأرض ، فقد كان اسم جيان دى فارجاس وحده كفيلا ببث الرعب فى نفوس الهولنديين ... كان رمز الاستبداد الاسبانى وديوان التفتيش . وعادت الى ذاكرة الفتاة الآلام التى احتملها ابوها وتلك الليلة الرهيبة التى لولا تدخل « ذو القناع الجلدى » الغامض للقيت هى واختها اسوا مصير .

واذ رات السيدة تنظر اليها عابسة اسرعت فاخذت الرسالة وانحنت امامها ثم غادرت الغرفة . ونهضت لينورا وتبعتها ، ووقفت على البسطة ولم تلبث ان

سمعتها تتحدث مع عمتها وزوجته . وسمعت اسم ابيها يأتي في الحديث مرارا وكذلك اسم ميشيل دايفز وعبارة الليلة قبل الساعة العاشرة ، واذ اطمأنت الى هذه الناحية عادت الى غرفتها وراحت تفكر في موقفها ... انها تخلصت الآن من عذاب الشك . لله ما كان احمقها . لقد عرف ذلك الغادر ان يستميلها اليه بكلماته المعسولة المشحونة تملقا ورياء وكادت تسلم اليه قيادها . يا للعار ! لو أن الله لم يتدخل في الوقت المناسب لالقت بنفسها بين احضانه ... هو قاتل حبيبها وبادلته قبلاته . يا للعار ... لم يكن يخطر لها ابدا ان مثل هذا الامر يقع معها هي بالذات . اف لهذا المجرم الفاجر . انه ادرك عندما رآها وحدها في غرفة الطعام انها اطلعت على سر المؤامرة ، ومع ذلك فلم يظهر عليه اى شيء ، وكان في مقدوره ان يطعنها من الخلف كما طعن رامون ولكنه اختار وسيلة اخرى معوجة فجاء بها الى هذه المدينة وحاول ان يخدعها وان يفرض عليها سلطانه ويمنعها من فضح السر الرهيب.

ولكن الله تدخل في الوقت المناسب فقد توسلت اليه طوال النهار أن يريها الطريق الذى يجب أن تتبعه ، وقد استجاب لها ، واصبح واجبها الآن واضحا فان الله بكشفه الستار عن ذلك الخائن يبدى رغبته في أن يرى يد القصاص وقد امتدت اليه . ولا ريب هناك في أن مارك عائد الآن لينذر قومه بان امرهم انكشف ولكن عزاءها الآن هو أن الحاكم العام سيعرف تفاصيل المؤامرة واسماء الالفى خائن ، وسيعرف ان الامير أورانج يبحث عن مشايعين لقضيته في جنت وانه سيعاقبهم كلهم دون رحمة أو شفقة مبتدئا بذلك الفاجر

مارك فان ريك ، شد ما تمقته الآن ، ذلك القاتل الاجير ... كانت تكره الآخرين بصفتهم اعداء الملك ، اما هو زوجها فقد كان اشدهم قسوة واكثرهم جبنا واعظمهم مكرا وخبثا .

ومرت الدقائق الطوال وهى مستغرقة فى افكارها هذه ، ودقت الساعة تعلن التاسعة فحدثت نفسها قائلة : « التاسعة ... لا ريب ان ميشيل داينز بلغ الآن منتصف الطريق بين دندر موند وبروكسل .

واقبلت اينيز اخيرا متعبة مكدودة من جراء الرحلة ووجدت سيدتها جالسة بجوار النافذة وعيناها تلمعان ببريق الحمى فنسيت تعبها على الفور واسرعت الى المراة الشابة فنضدت عنها ثيابها وحذاءها الجلدى ، وبعد ان غسلت قدمى سيدتها بالماء الدافىء ارقدتها فى الفراش . ولقيت مكافاتها أخيرا فى ابتسامة عذبةمن لينورا فقالت :

ــ انك الآن احسن حالا يا ملاكى . كدت افقد رشدى هلعا عندما رايت مارك فان ريك وحده فى طريقه الى جنت . وقد امرنا ان نسرع للحاق بك . ولم اجد متسعا من الوقت لكى القى عليه اى سؤال فقد اختفى على الفور .

ــ وهل اعطيت رسالتى للسيد لورنس فان ريك ؟

ــ نعم يا ملاكى ، بعد رحيلك بساعتين .

ــ وماذا قال :

ــ لم يقل شيئا

حولت لينورا راسها نحو الحائط واطبقت عينيها . وحسبت اينيز ان سيدتها تريد أن تنـــام فخرجت فى صمت بعد أن سحبت الغطاء فوقها . وتركت المصباح مضاء لانها ادركت أن لينورا تتألم فى صمت والظـــلام شر ناصح فى مثل هذه الظروف .

***

القسم الثالث

جنت

الفصل الاول

الثــــار

في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٥٧٢ دخلت فرق جنود الوالون مدينة جنت من بوابة والبورث باسم ملك اسبانيا والحاكم العام . وكانت الحراسة على البوابة ضعيفة فدخلوا دون مقاومة ما . وابتهج اهالي جنت في بادىء الامر عندما راوا تلك الفرق وامتلأت الشوارع والميادين العامة بالمواطنين السذج ، واطل النساء والاطفال من النوافذ في فضول . وكانت الفرق المذكورة مكونة من عدة آلاف لانها قطعت أكثر من نصف ساعة في عبور الجسر ثم تجمعوا كلهم في ميدان كوتر . وكانت غالبيتهم من اهالي الوالون ، وهي مقاطعة صغيرة متاخمة لبلجيكا وهولندا يتكلم معظم أهلها اللغة الهولندية .

وبعد ساعتين من ذلك دخل الدوق الفا المدينة تتبعه فرقة من الجنود الاسبان ، وكان الظلام شاملا وانقطع هطول الامطار ، وكان يرافقهم مائة من حملة المشاعل . واسرع المحافظ وكبار المواطنين لاستقبال صاحب الفخامة

الحاكم العام ، واصغى الدوق الفا الى عبارات الترحيب وهو فوق صهوة جواده . وبعد ان فرغ القوم من خطبهم امرهم الدوق ان يسلموا مفاتيح المدينة فى غضون ساعة واحدة . ودهش المحافظ واصحابه لهذا الطلب الغريب وظهر عليهم القلق ولكن لم يجرؤ اى منهم على الاحتجاج ووعدوه بالامتثال لرغبته فقال مصححا بلهجة صارمة :

— بل قولوا اوامرى .

وكانت فرق الوالون قد تجمعت قبل ذلك واصطفوا فى الميدان الكبير ، واحاط بهم اربعمائة من حملة المشاعل احالوا الليل نهارا ، كما انبعثت الانوار من نوافذ البيوت ، وراح الدوق الفا يستعرض الجنود وهو فوق صهوة جواده ، وكانت قوة احتمال ذلك الرجل عجيبة فقد انطلق من بروكسل مع الفجر وسار طوال النهار فقطع اكثر من عشرة فراسخ واجهد جوادين ، اما هو فلم يبد عليه اى تعب او اجهاد . كان عابس الاسارير تنطق سماته بالشدة والصرامة .

كان منظر الجنود عجيبا ، مهيبا ومزعجا فى نفس الوقت . واصبح جليا ان هذا الاستعراض لم يكن له غير غرض واحد وهو احداث الاثر الفعال عند الاهالى ، وسوف نرى ذلك فيما بعد .

كان كبار الرسميين فى جنت قد عادوا اثناء ذلك محدودبت ظهورهم واقتربوا من الدوق الفا . وكان المحافظ يسير معهم وهو يحمل مفاتيح المدينة فوق وسادة من المخمل . وعندما اصبحوا على مسافة قليلة

من الدوق صرخ فيهم ياوره واصدر امرا فركعوا كلهم في الماء والطين دفعة واحدة . وصرخ الياور مرة اخرى فنهض المحافظ وسار الى الدوق وبسط يديه بالمفاتيح فقال له هذا الاخير : حسنا .

وامر رئيس الحرس بان ياخذ المفاتيح ثم القى راسه الى الخلف وقال في صوت حاد مسموع :

ـ سوف تغلق ابواب المدينة هذه الليلة . وستبقى مغلقة الى ان تنفذ الاوامر التى ساصدرها الآن .

دقت الطبول عقب هذا الانذار . وسار رئيس الحرس على راس قوة من رجاله في طريقه الى ابواب المدينة لاغلاقها .

وعاد الدوق يقول :

ـ يا اهالى جنت ... نمى الى علمى ان الامير غليوم دى ناسو امير اورانج موجود بين جدران مدينتكم وانه يجند فيها فرقة من المتطوعين لغرض غير مشروع مناهضا بذلك اوامر ملكنا ورئيسنا الملك فيليب،وعليه فان جميع الذين خالفوا القانون والامن العام وانضموا تحت لواء ذلك الثائر سوف يرمون بالرصاص بدون محاكمة . وعلى الجميع ان يعلموا ان كل من يؤوى تحت سقف بيته المدعو اورانج او يعمل على مساعدته في مغادرة المدينة يعتبر خائنا وجزاؤه الموت . واريد ان يسلم الامير اورانج الى في قلعة المدينة ، حيث ساقيم، في بحر ثمان واربعين ساعة . وسوف تبقى ابواب المدينة مغلقة حتى ذلك الموعد . واذا لم يسلم الامير اورانج الى بعد هذه المهلة فسوف اعتبر الاهالى كلهم خونة جزاؤهم الموت دون اى اعتبار للجنس او السن .

وستعامل المدينة نفسها كما عوملت مونس وفالنسيين وماليني وليبارك الله ملكنا الكريم العادل .

دقت الطبول مرة اخرى اشارة الى انتهاء الدوق من حديثه ، ولبث الاهالى مكانهم صامتين كان على رؤوسهم الطير . واغمى على بعض النسوة فى حين ارتفع نحيب البعض الآخر . وتعلق الاطفال باثواب امهاتهم وقد تملكهم الخوف والذعر .

وبعد ان فرغ الدوق من خطابه لوى عنان جواده واجتاز الميدان وخلفه الحرس الخاص به وحملة المشاعل . ويقول المؤرخون ان الطقس تغير فى هذه اللحظة بالذات فقد هبت الرياح وفرق البرق السحب السوداء واجفل الدوق الفا فجأة واوشك الدوق نفسه ان يقع .واستولى الارتباك على الجنود ورسم المتدينون علامة الصليب لطرد الشيطان فى حين اعتقد الآخرون أن هذه الظاهرة الغريبة غير المتوقعة ما هى الا نذير من عند الله . ولم تلبث ان عادت الامطار فهطلت من جديد فتفرق الجميع فى لحظة خاطفة ونهض كبار المدينة فى اعياء شديد وراحوا يدلكون مفاصلهم .

وما ان اختفى الدوق واتباعه حتى انتشر الجنود فى انحاء المدينة كالوحوش المسعورة ، فلم تكن قد اعدت لهم اماكن للاقامة فيها ، وكان عليهم ان يتصرفوا بأنفسهم فاحتمى بعضهم فى الاسواق المسقوفة ، ولجأ البعض الى البيوت فاحتلوها عنوة . واذ رأى الاهالى ذلك آثروا التخلى عن بيوتهم واللجوء الى ذويهم واصدقائهم . وكان اكثرهم لم يعلموا بعد بانذار الدوق فلما راوا الجنود يستولون على بيوتهم تملكهم الذعر

وعاد الى ذاكرتهم ما حل بالمدينة من اعمال السلب والنهب عند زيارة الدوق الفا لها لاول مرة منذ خمس سنوات فهرعوا الى ابواب المدينة يبغون الفرار . ولا تسل عن مدى ما اصابهم من خوف وفزع شديدين عندما راوا الابواب مغلقة وعندما قيل لهم ان مغادرة المدينة ممنوعة منعا باتا طالما لم يسلم الامير اورانج نفسه للدوق الفا .

وفيما كان الجنود يباشرون اعمال العنف والقسوة طاف المنادون بانحاء المدينة يقراون منشورا يحظر على الجنود اللجوء الى السلب والنهب . وقد جاء فى ذلك المنشور ان كل من تثبت عليه تهمة الاقدام على اى شىء من ذلك يتعرض للاعدام شنقا . ولكن ذلك القرار جاء متاخرا فان عددا كبيرا من المخابز والجزارين ومحلات التموين تعرضت لزيارة العصابات المسلحة . وانصافا للحق نقول ان الجنود تدفع ثمن مشترواتهم ولكنهم كانوا يحددون هم انفسهم هذا الثمن بطريقة تعسفية . وكانت دائما اثمانا منخفضة بكثير عن الواقع والويل لصاحب المحل الذى يثور او يطالب بثمن اكبر .

وكما سبق القول كانت غالبية الجنود من الوالون ، وكانوا كلهم يعلمون بالعذاب الذى يعانيه اخوانهم فى الوطن تحت نير الاستعباد الاسبانى ، ولكن المال الذى اغرقهم به الاسبان اسكت ضمائرهم وجعلهم ينظرون الى اخوانهم الهولنديين نظرتهم الى اعداء لدودين لابد لهم من سحقهم .

* * *

الفصـــل الثانى

كلب الحراسة الامين

بعد ذلك بساعتين اجتمع ما يقرب من الفي رجل بقاعة الطعام بدير سانت اجنس ، وهى قاعة كبيرة منخفضة السقف . وكانوا يجلسون فوق مقاعد خشبية صفت أمام موائد كبيرة مصـــنوعة على هيئـــة حدوة الحصان . وكانت الستائر الســـميكة قد أسدلت فوق النوافذ واغلقت الابواب فلم يكن من المســـتطاع رؤية النور من الخارج ولا سماع الاصوات .

وكان اغلب الموجودين من الشباب وبعضهم يقترب من الشيخوخة كالسيد دينوت والنائب العام والبارون فان جروبندوك والمستشار المالى العام . وكان بينهم كذلك السيد بيير فان اومريك وكيـــل المحافظ والسيد ليفين فان ديزن ولورنس فان ريك وفردريك فان بيفرن وغيرهم .

وكانت الانظار متجهة كلها فى هذه اللحظة الى رجل يقف فوق منبر فى آخر القـــاعة . وكان رجـــلا طويل القامة يرتدى سترة وسروالا ضيقين يكادان يلتصقان بجسده ، ويلبس حذاء طويلا ويغطى راسه بقلنسوة ويخفى وجهه خلف قناع من الجلد . وتكلم فقال فى صوت واضح :

ـــ ان صاحب السمو الامير اورانج ، حفظه الله ، سلمنى قائمة باسمائكم وعناوينكم ، وبفضل معاونة السيد دينز الذى زودنا بجياده وبصديقنا لورنس فن ريك وفردريك فان بيغرن استطعنا ان نخطركم بالخطر الذى يهددنا فى الوقت المناسب .

قال السيد دنيوت : الحق أن صديقنا « ذو القناع الجلدى » قام بعمل مجيد يستحق منا كل الشكر ، وانى اقترح ان نتخذه زعيما لنا فى هذه الساعات العصيبة فهو وحده الذى يستطيع الخروج بنا من هذا المأزق .

فقال ذو القناع : وددت لو ابذل لكم المزيد . وقد حدثتكم بالامس مرارا وقلت لكم ان هناك خطرا ماحقا عاجلا يتهددنا جميعا لأن الدوق ألفا يعرف كل شىء . ونصحت الذين يستطيعون منكم بالهرب مع نسائهم واولادهم والاسراع بمغادرة المدينة قبل ان يتعذر عليهم ذلك لأن العذاب والموت فى انتظارنا جميعا .

فقال فان دينز : وقد رفضنا جميعا العمل بنصيحتك كما ترى يا صاحبى .

ـــ نعم ، نعم . انني اعرف انكم ابطال بواسل ، وصاحب السمو فخور بكم وهو يوليكم كل ثقته وان قضيتنا لابد وان تنتصر ومعنا رجال مثلكم . ويسرنى فى انتظار ذلك ان اقول لكم ان الامير اورانج موجود الآن فى مكان آمين .

سرت همسة ارتياح بين الموجودين . بل ان بعضهم صفق فى خفوت فى حين استطرد ذو القناع :

ـــ وقد حاولت اقناعه بمغادرة المدينة صباح اليوم ولكنه لم يشأ أن يصغى الى وابى ان يصدق أن حياته

فى خطر عاجل . وهز كتفيه عندما قلت له ان امرنا قد افتضح وان الدوق الفا فى اعقابنا .

وقاطعه احد الشبان قائلا :

ــ هل تعلم من الذى خاننا ؟

وتعالت الاصوات من كل مكان :

ــ من الذى خاننا ؟ ... ما اسمه ؟

حدق لورنس فان ريك فى « ذو القناع الجلدى » فى اصرار كما لو كان يريد ان يقرأ فى عينيه ما يؤكد شكوكه وشبهاته . وقابل ذو القنـــاع نظرته بمنتهى الثبات وقال :

ــ لقد لقى الخائن الذى تتحدثون عنه الجزاء الذى يستحق .

ترددت جوانب القاعة بهذا السؤال فى وقت واحد : وهل مات ؟

اوما الرجل المقنع براسه ولم يجب . وحسب الجميع ان حارس الامير قد اقتص من الخائن وانه لا يريد أن يتكلم أما تواضعا منه واما لسبب آخر لا يعرفه أحـد غيره ولا يريد الافصاح عنه ، وتنهد لورنس وعاد فغرق فى افكاره .

وقال فان اوفريك نائب المحافظ :

ــ حدثنا عن الامير ... اين هو ؟

ــ فى طريقه الى مدينة بروج . لم يكن يريد مغادرة جنت فى بادىء الأمر . وكان لا يفتأ يقول « انك ترى الخيانة فى كل مكان ، وانك لخصب الخيال . وأدركت اخيرا انه من غير الممكن اقناعه الا بالأدلة القـاطعة التى لا تقبل الجدل فظللت انتقل على ظهر جوادى ما بين

تريتى « ميل » و « يترن » واخيرا رايت فى الساعة الرابعة من بعد الظهر ساعى تلغراف مدينة « آلوست » وكان جواده مرهقا فاسرعت وسبقته وهكذا تمكنت فى الوقت المناسب من اخطار الامير بقدوم الدوق الفا .

فقال لورنس فان ريك وحلقه يكاد يجف .

— وماذا فعلت ؟

— تنكر الامير اورانج والكونت هوجستراتن والكونت مانسفيلد فى زى الفقراء ، اما أنا فتنكرت فى زى تاجر من تجار الصوف ثم اختلطنا بجموع الشعب عند بوابة والبورت . وكانوا متجمعين فى انتظار قدوم الدوق الفا ، وكان رئيس حرس البوابة ضابطا متساهلا اراد ارضاء الاهالى فتركهم يخرجون لملاقاة الاسبانى الكبير واظهار ولائهم له . ولم يلتفت احد الينا فخرجنا معهم وقصدنا ميرليك ومن هناك عبرنا الحقول حتى بلغنا لجهيم حيث تمكنا من الحصول على بعض الجياد . وكانت الساعة قد اشرفت على السادسة عندما رايت الامير ينطلق فى طريقه الى بروج . ولما عدت فى حوالى الساعة الثامنة كانت ابواب المدينة قد أغلقت.

وجعل يضحك فساله احد الثوار :

— وكيف دخلت ؟

— هل نسيت أنني اجيد السباحة وتسلق الاسوار ؟

— الم يرك احد ؟

— بل رآنى بعض الحراس . ولكن الاسبان كما تعرف لا يجيدون الرماية ... دعونا من الماضى الآن . اننى اديت واجبى وعلى من هو اقدر منى الاعداد للمستقبل الآن .

فصاح وكيل المحافظ : هــذا لن يكون ... نريدك انت ان تكون زعيمنا وقد جاهرناك بذلك منذ القليل .

ـ انا ؟ زعيمكم ؟ ... ولكنى الم اخلق للقيادة . ولست غير كلب صالح للحراسة . اننى اوثر ان اتبع زعيما وان احرص عليه عند الضرورة .

ارتفعت فى القاعة عبارات الاحتجاج فتظاهر النائب العام بالشدة والصرامة فقال :

ـ هذا محال يا صاحبى . ان الرجــال لن يطيعوا احدا غيرك . ارفع قناعك لكى نرى وجهك .

فقال ذو القناع : ما من احد يرضى ان يصغى الى رجل كان عرضة للازدراء والاحتقار . وقد تعرضت لازدرائكم جميعا .

وقال السيد دينز محتجا :

ـ ان قولك هذا بعيد عن الحق فاننا قدرنا ذا القناع الجلدى واوليناه كل ثقتنا واحترامنا . اننا لا نعــرف من انت يا صاحبى ولكننا نعرف انه لولاك لوقع غليوم دى ناسو بين ايدى الاعداء منذ وقت طويل فارفــع قناعك فانت جدير بان تكون زعيمنا وقائدنا .

وصاح الجميع يقولون :

ـ ارفع قناعك ... ارفع قناعك .

تقدم الرجل المقنع الى حافة المنبر ورفع يده مطالبا بالسكوت فساد الصمت على الفور وقال :

ـ لا يسعدنى الا الامتثال لارادتكم . لقد اخطرتكم باننى لا اصلح للقيــادة ولكنكم ابيتم مع ذلك الا ان تختارونى زعيما لكم ، ولكم ما تريدون . بيد انى اريد

مع ذلك أن اوقفكم على الخطة التي أنوى تنفيذها قبل ان تربطوا مصائركم بمصيرى ، فأنتم تعرفون ان الدوق الفا قرر ترك المدينة لجنوده يعملون فيها السلب والنهب اذا نحن لم نسلمه الامير اورانج ، وانتم تعرفون معنى هذا . سوف يكون مصير جنت ابشع من مصير مونس ومالنسيين ومالين ، وان قلوبنا لتتفطر بالاسى واننا لنرتجف رعبا لان الامر يتعلق قبل كل شيء بامهلتنا وزوجاتنا واولادنا . اما حياتنا نحن فلا قيمة لها . ولو ان الامير علم بقرار الدوق لسارع بالعودة وتسليم نفسه لانقاذ الاهالى . وقبل ان افارق الامير عرضت عليه خطة وافق على العمل بها بعد ان ادخل عليها مارآه مناسبا من تعديلات وسوف اعرضها عليكم الآن .

وامسك عن الكلام لحظة ودار بعينيه الظاهرتين من خلال القناع بين الحضور ثم استطرد :

ـــ وانني اعلم ان كلا منكم مستعد للتضحية بحياته وسوف نقاتل حتى الموت من أجل كل شارع من مدينتنا وكل بيت من بيوتنا . وكلنا نعرف أن الله سوف يسترد منا ذات يوم الحياة التي منحنا اياها واذا كان لابد من ان نموت غدا فسوف نموت على الاقل كما يموت الرجال مدافعين عن حياتنا حتى آخر رمق فى سبيل قضية عادلة كريمة .

وامسك مرة اخرى ليسترد نفسه وجاءته من كل مكان عبارات التشجيع والاستحسان . وقال النائب العام :

ـــ اتفقنا يا صاحبى . سنقاتل معك وتحت قيادتك .

ومهما يكن فلدينا ما يكفى من الاسلحة .

ـ هذا صحيح ، وان جمعية الاسلحة معنا حتى آخر رجل من رجالها ، وقد تمكننا من تخزين ما نريد من اسلحة فى مخازننا السرية والفضل فى ذلك يرجع الى السيد فان بيفرن والى مساعدته لنا . وهذه المخازن تكفينا وتكفى الالفين الذين سينضمون الينا غدا . وقد جاء الدوق ومعه عشرة آلاف جندى واذا اضفنا اليهم جنود الحامية اصبح عددهم ثلاثة ضد واحد .

فقال احد الشيوخ : فى هذه الحالة يمكننا ان نقاتل ولكن لن يكون فى مقدورنا ان ننتصر .

فاجابه ذو القناع : هذا امر جلى ، ولهذا لم اتحدث عن النصر . بل اننى على العكس من ذلك اقول اننا سوف نهلك لان القوة تغلب الحق ، ذلك الا اذا جاءتنا معجزة من عند الله . ولكن لا يجب ان نعتمد على ذلك، واذا كنا نصمم على القتال فذلك لاننا نابى ان نموت كما يموت الجبناء فهل انتم معى ايها السادة ؟

فاجابه الثوار فى صوت واحد : ـ نعم ، نعم .

واستطرد الرجل فقال :

ـ اننى لم افكر بعد فى ادق تفاصيل الخطة التى وافق عليها الامير ونحن ننتظر وصول الجياد فوندلجهم، وسوف احتاج الى الاسترشاد براى الكثيرين منكم قبل تنفيذها . اننا الآن لا نزيد عن الفين ولكن غدا سيتضاعف عددنا . ومن يدرى ما سوف يقع عند اول صدام بيننا وبينهم . لعل اهالى المدينة ينضمون الينا عندئذ . يجب ان نضع فى خطتنا كل احتمال .

وتقدم مرة اخرى حتى حافة المنبر وقال فى صوت اجش :

ـ لا يجب ان ننسى ايها السادة ان الطاغية قد امهلنا

ثماني واربعين ساعة . ومازالت امامنا وسيلة نستطيع بها انقاذ مدينتنا الجميلة من اهوال التدمير والخراب.

فقال السيد فان اوفريك وهو يهز راسه غير مصدق:

— وكيف هذا ايها الصديق ؟

— اليكم ما خطر لى الآن . غدا ، فى وقت مبكر من الصباح يذهب وفد منكم الى القلعة ويطلب مقابلة الدوق الفا ويذكر له ان الامير اورانج قد تمكن من مغادرة المدينة بمساعدة حارسه المعروف باسم « ذو القناع الجلدى » وانه مستعد لتسليمه ذو القناع نفسه.

ارتفعت عاصفة من الاحتجاجات غطت على كلماته الاخيرة . وعندما هدات الضجة عاد ذو القناع يقول فى لهجة خطيرة :

— انكم تعرفون السر والغموض الذى يكتنف بشخصيتى ، وهذا شىء لم تكن له فيه حيلة ، فان الظروف هى التى فرضته على ، وتعرفون كذلك ان اعداءنا لا يتمنون شيئا غير موت الامير اورانج وربما موتى انا ايضا ، ولهذا اعتقد انكم اذا عرضتم على الحاكم العام ان تسلمونى اليه فقد تحصلون منه على وعد بتخفيف الاهوال التى تنتظر مدينتنا .

ساد صمت ثقيل مشبع بالقلق والارتباك بين صفوف الثوار . ولم تعد تسمع صيحات الاحتجاج ولا الهمسات الخافتة . وتبادل الرجال النظرات دون أن يجرؤ احدهم على الافصاح عما يدور بخلده . من يكون هذا الزعيم الغريب الذى وقع عليه اختيارهم والذى يضحى بنفسه هكذا وبكل بساطة لينقذ مواطنيه ؟ هل يمكنهم تقبل هذا الاقتراح غير المتوقع بدون أن ينالهم العار .

وسالهم ذو القناع بعد فترة من الصمت :

— حسنا ايها السادة . علام استقر رايكم .

أجاب النائب العام : يبدو لى يا صديقى انك تتكلم بدون روية او تفكير فى المصير الذى ينتظرك اذا وقعت بين ايدى الدوق الفا ؟ انه لن يسلمك الى الجلاد ولا الى المشنقة . سوف يكون مصيرك التعذيب ... والتعذيب الشديد .

ــ اعرف ذلك . وهذا صحيح . ولكن كثيرين غيرى وكلهم خير منى لم يترددوا . اننى شاب،وهذا صحيح. ولكن ليس هناك ما يربطنى بهذه الارض كما سبق ان ذكرت لكم ، وصدقونى اذا قلت اننى لن اترك خلفى من يبكينى .. فلاتفكروا فى امرى وانما فى اولئك الذين سوف يتعرضون للدوق الفا غدا لان المفاوضات لن تخلو من خطر ... يجب ان نفكر اولا فى انقاذ المدينة. وما قيمة حياة رجل واحد امام مسئولية ضخمة كهذه ؟

وساله لورنس فان ريك فجاة :

ــ ومن تقترح للقيام بهذه المهمة البغيضة ؟

فأجابه المقنع : ــ ليس انت على كل حال فان امك ابت الفرار قبل استفحال الخطر ، وعليكالآن أن تسهر عليها وأن ترعاها . وارى ان يكون السيد النائب العام على رأس الوفد فانه بحكم منصبه بعيد عن الظنون والشبهات ، ولن يعتقد احد انه من الثوار . ومثل هذا الاقتراح يبدو طبيعيا اذا صدر منه وعلى السيد جرونبدروك ان يرافقاه .

فصاح نائب المحافظ : ــ كلا . اننى لن اشترك فى هذا العمل ... اننى لافضل ان تقطع يدى اليمنى .

ــ اذن فانت تفضل التضحية بالمدينة وبالالاف من النساء والاطفال وبزوجتك نفسها بدلا من التضحية بحياة رجل غريب مثلى . لا تنزعج من اجلى ، فليس

هناك من يبكيني كما سبق ان قلت ، ثم ان التضحية التى اقدم عليها عن طيب خاطر ليست بشىء ازاء ما سيلاقيه الوفد من عنت الطاغية وتعسفه واهاناته . ان التضحية الحقيقية هى التى اطلبها منكم ايها السادة . اما انا فيسعدنى ان اهب حياتى فى سبيل جنت ، وهذا اجمل واقصى ما اتمناه .

فتاوه النائب العام قائلا :

— رحماك يا ربي ... لطفك اللهم .

واستطرد المقنع : — هذا صحيح ، فهو وحده الذى يستطيع ان يلطف بنا . اننى اخشى ان يرفض الدوق الفا هذا الاقتراح فان موتى لن يشفى غليله ، واذا فشلنا فى مهمتنا هذه ايها الاصدقاء فليس امامنا عندئذ الا القتال ، والقتال المرير .

وقال السيد دنيوت :

— يمكنك ان تعتمد علينا .

— عليكم الآن ايها السادة أن تعودوا الى زوجاتكم وأن تواسوهن وتقدموا لهن المثل الطيب على الثقة والهدوء ، وان تطلبوا من العلى القدير ان يترفق بنا ، ودعونى احتفظ بقناعى فاننى اريد ان ابقى بالنسبة لكم ، وغدا بالنسبة للدوق الفا « ذو القناع الحديدى » الخفى الغامض . وعليكم ان تأتوا فى نفس هذا الوقت غدا لسماع تقرير السيد نيوت عن نتيجة مفاوضاته مع العدو ، وليوفقنا الله .

نهض الرجال وتفرقوا فى هدوء بعد ان حيوا زعيمهم المجهول وهم ينظرون اليه نظرات كلها اشفاق واسى . وخرجوا جماعات صغيرة لكى لا يشتبه فيهم احد . ولما هم ذو القناع الحديدى بمغادرة المكان بدوره دنا منه

لورنس فان ريك . ورأى الرجل المقنع فى عين لورنس نظرة كلها توسل ورجاء فقال له :

ـ انها فى مأمن من انتقام مواطنينا ايها السيد . أهذا هو الذى يشغلك ؟

ـ نعم . وثمة شيء آخر ... هل هى التى وشت بنـــا ؟

ولما لم ينطق الرجل المقنع استطرد لورنس يقول وقد هدأ روعه :

ـ اريد أن احدثك عن الاوراق التى عهد الى بهـــا صاحب السمو .

ـ حسنا ؟

ـ عندما عدت لاستردادها بعد أن غادرت هى البيت لم اجدها .

ـ وماذا فعلت عندئذ ؟

ـ ادركت ان امرنا انكشف ... وان الذى كشف سرنا امرأة ... أواه ايها السيد ... كان امرا رهيبا. لم أدر ماذا افعل . وقد اخبرت امى ، ولكننا لم ندر كيف نتصل بصاحب الســـمو ولا كيف نتصرف لانذار اصدقائنا بالخطر العاجل الذى يتهددهم .

ـ الم تفكر فى الهرب ؟ ... اعنى ... الم تفكر فى الذهاب بأمك الى مكان أمين قبل كل شيء ؟

ـ توسلت اليها ان تسرع بمغادرة المدينة ولكنها ابت . ولم نكن قد قررنا شيئا عندما جاءتنا رسالتك .

ـ لم اشأ ان ازعجكم بغير اساس . ان الاوراق فى أمان ، فبعد ان انفض اجتماعكم بالامس تمكنت من الدخول فأخذت الاوراق من المكتب واستبدلتها بغيرها تضم اسماء لا وجود لاصحابها ، وهى التى تســـلمها مارجاس .

ـ كانت معك مفاتيح زائفة اذن ؟

ـ الست جاسوس الامير اورانج يا صديقى ؟ وهل يمشى الجاسوس من غير مفاتيح زائفة ؟ ان الاوراق الحقيقية معى ولك ان تطلبها منى اذا ما احتجت اليها ، فلا يجب ان يعرف احد انها سرقت منك ، ذلك الا اذا كنت قد تحدثت عن ذلك مع احد من قبل .

ـ اوه ، ابدا ايها السيد ، فما كنت لاجرؤ على ذلك . اننى احتملت مالا طاقة لاحد به من عذاب قبل ان تاتينى رسالتك . فقد رايت بعين الخيال الاوراق بين يدى جواسيس الدوق الفا وهم يسرعون الى بيوت اصدقائنا للقبض عليهم .

ـ دعك من كل هذا الآن واسرع الى امك . اعن بها جيدا يا سيدى وليكن الله معكما .

ومشى ذو القناع الجلدى نحو الباب ولكن لورنس اعترض طريقه مرة اخرى وساله متوسلا :

ـ وماذا انتهى اليه أمرها يا سيدى ؟

ـ صل من اجلها يا صديقى لانها تتالم اكثر منك فى هذه اللحظة .

ـ ماذا يجب ان نعمل ؟ ... هل نلعنها ؟ ... أو نغفر لها فنخون قضيتنا .

ـ لا هذا ولا ذاك . ارث لها يا سيدى ، فهى تفهم الوطنية والعدالة بطريقتها الخاصة ، وهى تختلف عن طريقتنا . انها تمقتنا كلنا لاننا اعداء شعبها وملكهـا وابيها . وتمقتنى انا اكثر من كل هؤلاء لاننى قتلت الرجل الذى تحبه .

عاد لورنس الى بيته وهـو يفكر فى كلمات الرجـل المقنع ، ووجد امه ساهرة فى انتظاره فقال لها :

ــ لقد فات الاوان يا اماه ... لو انك اصغيت الى لكنت الآن فى « بروج » فى امان .

ــ كلا يا بنى . ان مكانى هنا . اعرف اننى امرأة عجوز وضعيفة ولكن ذلك لن يمنعنى من العناية بالجرحى والصلاة من اجل الموتى ، وان لهذا لاهمية كبرى فى المعركة . اما ان ادين بحياتى لهذه الشقية الخائنة فكلا والف مرة كلا .

وتطايرت عيناها شررا وبح صوتها فقال :

ــ بحق السماء يا اماه ... لا تقولى هذا .

ــ ماذا تقول ؟ ... هل تريد ان تدافع عنها انت ايضا ؟

ــ انها اضطرت الى هذا التصرف يا اماه ، فهى لا تعرف ما يدور فى هذا البلد ، واننى اؤكد لك انها نقية القلب كريمة الخصال .

ضحكت الام ضحكة مريرة وقالت :

ــ نقية وكريمة ... بل قل انها حليفة الشيطان وانها معدومة القلب والضمير . كلما تذكرت اننى لمست بشفتى ذلك الوجه المداهن وذلك الجبين الابيض الذى يخفى خلفه الكذب والرياء .. لا تدافع عنها يالورنس فانك تتسبب فى عذابى بدفاعك هذا . دع هذا لاخيك مارك فهو جدير بان يلهو ويشرب وهو يرى المدينة تنهار فوق اهليها ... آه ... نعم .. ان كلا منهمــا جدير بالآخر .

ارتمى الشاب على عنق امه العجوز وصاح :

ــ لا تقولى هذا يا اماه . لا تتكلمى هكذا عن اخى المحبوب مارك ، فانت لا تعرفين بعد . اما انا فاننى اعرف الآن .. صلى من اجله يا امى ... صلى من اجله هذه الليلة بالذات .

ــ ماذا تقول ؟ ... هل جننت يالورنس ؟ ... ماذا حدث لمارك ؟ ... اين هو ؟

ــ اين هو ؟ ... فى فراشه طبعا .

ــ طبعا فى حين ان الدنيا كلها تصلى وتبكى . انه لا يمكن ان يكون فى مكان آخر غير فراشه .

ــ نعم يا أماه ، وهو يرقد الآن فى سلام . اصغى الى . ساقول لك كل شىء . ان مارك يضحى بحياته لانقاذنا جميعا .

نهضت كليمانس فان ريك وهزت راسها وهى تنظر الى ابنها نظرات زائغة وتمتمت :

ــ لورنس ... لا ريب انك جننت ؟ ... ماذا تعنى ؟

ــ ان مارك ... حبيبنا مارك هو صديق الامير اورانج وحارسه يا امى العزيزة ... ان ابنك مارك هو « ذو القناع الجلدى » .

ــ ما هذا الهراء ؟

ــ اقسم لك اننى لا انطق بغير الحقيقة يا أماه .

تداعت كليمانس فان ريك فوق المقعد وتقلصت يداها ونطقت بكلمات غير مفهومة . وبقيت لحظة فاقدة اللب ثم ركعت على ركبتيها وضمت يديها وتاوهت قائلة :

ــ رحماك يا الله .. لو صح هذا فغفرانك ياربى .

فقال لورنس فى انفعال كبير :

ــ انها الحقيقة يا أماه،فقد جلست بجواره ساعتين هذه الليلة . وقد تكلم نيابة عن الامير اورانج، واخترناه كلنا زعيما لنا . واذا رفض الدوق الفا الاقتراحات التى سنعرضها عليه فسوف يتولى مارك قيادتنا بنفسه فى المعركة .

ــ اقتراحات ؟ .. اية اقتراحات ؟
ــ ان نسلم « ذو القناع الجلدى » ثمنا لســـلامة المدينة .
احست المرأة العجوز أن قواها تتخلى عنها وتمتمت تقول فى صوت واهن :
ــ وهل قبلت هذا الاقتراح المشين وانت اخوه ؟
فاجابها لورنس وهو يطرق براسه :
ــ يجب أن ننقذ النساء والاطفـــال قبل كل شىء يا أماه .
فتاوهت المسكينة قائلة :
ــ ليرحمنا الله جميعا اذن .
وتهالكت الى الوراء وجسدها يرتعش لفرط بكائها .

الفصل الثالث

الطغـــــاة

فى صباح اليوم التالى ذهب خمسة من كبار رجال جنت المحترمين لمقابلة الدوق الفا فى قلعة المدينة . وهؤلاء الخمسة هم بيير فان اوفريك نائب محافظ جنت والسيد دينوت ، النائب العام والسيد جان فان بيجرود والسيد ليفين فان دينز ، رجل الاعمال والبارون فان جروبندروك المستشار المالى للمدينة .

وقد وصلوا الى القلعة فى وقت مبكر وظلوا واقفين فى قاعة الحرس الكبيرة ساعتين دون أن يتمكنوا من الجلوس دقيقة واحدة لأن الحراس كانوا يشغلون كل المقاعد ويلعبون النرد . اما الذين لايشتركون في اللعب فقد راحوا يرمونهم بالدعابات اللاذعة الساخرة . ولم يجرؤ اصحابنا على الشكوى الى رئيس الحرس خوفا من ان تصيبهم اهانات اخرى .

وفى نحو الساعة الحادية عشرة ، قيل لهم ان صاحب الفخامة فى انتظارهم ، وأحاطت بهم فرقة من الجنود سارت بهمفى ممرات عديدة تزخربالحراس.واستقبلهم الحاكم العام فى الغرفة التى اعدت لتكون مكتبا خاصا له . وكان يجلس فوق مقعــد كبير مكســـو بالقطيفة

الحمراء موضوع فوق منصة تعلوها قبة قرمزية اللون . وكان يبدو وهو جالس انه اله مخيف . وانحنى الرجال الخمسة امام الدوق الفا فى خشوع . وكان بعض أعضاء المجلس الاعلى يجلسون على مقاعد صنعت على شكل نصف دائرى حول المنصة وبينهم البيريك ديلريوو الرئيس فيجليوس والقائد نوار كارم والرئيس هيلز وجيان دى فارجاس ، وكان هذا الاخير قد اقبل لتوه من بروكسل .

وقال الدوق فى غلظة :

ـ ماذا تريدون أيها السادة ؟

تقدم السيد دينوت بضع خطوات وقال فى وجل :

ـ انه ليحز فى نفوسنا ان نعلم ان زيارة فخامتكم لمدينتنا غير قائمة على الود والصداقة ، وان الاجراءات الصارمة التى اتخذتموها فيما يتعلق بمواطنينا لتملأ قلوبنا حزنا وأسى .

فقال الدوق فى حدة :

ـ وان خبثكم المقيت ليملأ قلبى غضبا وحنقا .. ولولا واجب الرحمة الذى يفرضه على ملكنا المحبوب لدمرت مدينتكم ولجعلتها خرابا ولقتلتكم جميعا بحد السيف .

ـ اننا نثق جميعا فى رحمة ملكنا ، الملك فيليب وعدله ونضع بين يدى فخامتكم مصير مدينتنا الفخمة .

ـ ان مصير مدينتكم مرتبط بى انا وحدى ، وقد ذكرت لكم امس شروطى لانقاذها من التدمير التام ، وليس من عادتى ان اغير شروطى .

ـ ولكن المدينة لن تتمكن من تنفيذ الشرط الوحيد الذى من شأنه تخفيف حدة الملك وغضب فخامتكم .

فأجابه الدوق : اذا كان الامر كذلك فلماذا انيتم ؟ ...

ولماذا تضيعون وقتى فى تبادل كلمات لا طائل منها . اما ان تسلموا غليوم اورانج واما ان يحرق جنودى المدينة غدا مساء . هذا جلى ، اليس كذلك ؟

تذكر النائب العام فى هذه اللحظة الكلمات التى نطق بها ذو القناع الجلدى امس . « ستكون مهمتكم عسيرة ويجب ان تطرحوا عنكم كبرياءكم وكرامتكم وان تتملقوا الطاغية الذى تمقتونه وتزحفون عند قدميه » ... ان ذا القناع الجلدى لم يبعد عن الحقيقة حقا .

ابتلع السيد دينوت لعابه وقال فى خشوع :

ــ ماذا نستطيع ان نفعل لنثبت اخلاصنا لك يا سيدى . ان اورانج ليس موجودا بين جدران جنت ، ولا نعرف مقره .

فقال الدوق : لا شان لى فى ذلك . اننى اريد الامير اورانج والا مسحت مدينتكم مسحا .

ــ كنا نرجو ان نقدم لفخامتكم الدليل على اخلاص المدينة للملك و ...

ــ اسكت ايها المأفون ... اخلاص المدينة للملك ... انها تعج بالمتآمرين وتزخر بالاسلحة المخباة فى الكنائس والمقابر .

ــ ان بالمدينة الفين من الرجال كلهم مستعدون للقتال من اجل الملك والموت فى سبيله ودفع ما تشاؤون من اموال .

نطق السيد دنيوت بكلماته الاخيرة فى تؤدة وهو يراقب بطرف عينه انفعالات رجال الدوق ، واحس بالارتياح عندما راى بريق الطمع يتلألأ فى اعينهم ، ولكن الدوق الفا حطم آماله عندما اجاب متهكما :

ــ كلا ايها السادة . اننى لن اعدل عن تدمير مدينتكم ،

وكر الثوار حتى ولو قدمتم لى كل ما فيها من كنوز . ومهما يكن من امر فان الاموال التى ستقدمونها لا تعد شيئا اذا نحن وازنا بينها وبين ما سوف يحصل عليه جنودي . كلا . لن اغير رايى الا اذا سلمتم الى الامير اورانج حيا .

ــ يمكننا ان نجمع مليونين من الجنيهات الذهبية غدا .

ــ حسنا ، حسنا ... يسرنى ان اسمع هذا الخبر . اذا كنتم تستطيعون هذا حقا فان رجالى يستطيعون جمع عشرين مليونا فى يومين من غير شك .

وتدخل نائب المحافظ فقال :

ــ ان المال الذى يقدم عن طيب خاطر لا يجرح احساس من يقبله . وان تدمير مدينة حرة مخلصة لهو عار كبير سوف يوصم اسبانيا الى الابد .

ــ وفر على نفسك هذا الكلام ايها المافون والا امرت بقطع لسانك .

اطرق الهولنديون برؤوسهم مذهولين فى حين صاح الدوق :

ــ اغربوا عن وجهى . . . اذا لم يكن لديكم ما تقدمونه لى غير المال الذى هو من حقى فلا تضيعوا على وقتى وعودوا الى الذين ارسلوكم .

فقال النائب العام فى وقار على الرغم من الالم الذى بدا يحس به فى ظهره وساقيه :

ــ لم يرسلنا احد يا صاحب الفخامة . اننا مواطنون احرار فى مدينة من سوء طالعها انها تعرضت لسخط فخامتكم . ومادام الامر كذلك فان لدينا عرضا آخر دلالة على اخلاصنا .

ــ عجل به اذن فان صبرى يوشك ان ينفرغ .

ــ ان ذا القناع الجلدى موجود فى جنت ، وقد

نمى الى علمنا انه استطاع دخول المدينة امس بعد اغلاق الابواب و . . .

فقاطعه الدوق متهكما :

ــ وتريدون ان تسلموه الى اذا انا تعهدت بالابقاء على المدينة . . . اليس كذلك ايها الاحمق المأفون ؟

لم يجرؤ السيد دينوت على النطق بكلمة نعم واطرق برأسه . وانتظر الرجال الخمسة قرار الطاغية وقد تعلقت حياتهم به . ولكن الدوق بدا غير متعجل على الرد فقد رأى فارجاس يتحول فجأة ناحية الستار المصنوع من القطيفة المزخرفة بالنقوش والذى صدر من خلفه انين طويل خافت فانحنى فوقه وهمس يسأله عابس الاسارير :

ــ اهى هنا منذ وقت طويل ؟

فاجابه فارجاس فى صوت خافت :

ــ منذ البداية .

ــ ولكن حديثنا هذا لا شأن للنساء به .

ــ انك لا تعرف ابنتى يا صاحب الفخامة . ان ذا القناع الجلدى هو الذى قتل حبيبها ، واظن انه يعنيها ان يلقى هذا الشقى جزاءه .

ــ انك على حق . سوف نمكنها من الانتقام اذن .

وتحول الى الرجال الخمسة وقال فى برود :

ــ ان عرضكم هــذا يروق لى واننى اقبله كاجراء تحفظى فحسب . واعترف انه يسرنى ان ارى ذا القناع معلقا فى حبل المشنقة ، ولكنه ليس عندى باكثر من مجرم وجنت تعج بالمجرمين الذين على شاكلته ، وقد اتيت لالقنهم درسا لا ينسونه . آه . هل كنتم تعتقدون ان ذلك الدوق الطيب يقنع بالقليل ؟ تمكنون اورانج من

الهرب وتسلحون الآلاف من الثوار ثم تاتونني فتحدثونني عن اخلاصكم والدموع ملء عيونكم . كلا ، ايها السادة . لقد استقر رايي وسوف تحرق جنت مساء غد اذا لم تسلموني اورانج . على انني لا امانع فى ان امنحكم امتيازا نظير العرض الذى قدمتموه لى الآن . اذا ما فرغ جنودى من نهب كنوزكم حتى الشبع واذا ما رايتم الادخنة ترتفع فوق مدينتكم الملعونة فانه يمكنكم عندئذ ، وعندئذ فقط أن تاتوني بذى القناع الجلدى على قيد الحياة فاوقف التدمير والتخريب واصدر اوامرى بالابقاء على راس العائلة وعلى ولد واحد وبنت واحدة فى كل بيت . هذه هى كلمتي الاخيرة . اما اذا ابدى احد اية مقاومة فسوف ابيد الاهالى عن آخرهم . اذهبوا وقولوا لذلك المجرم اننى فى انتظاره .

نهض الدوق واقفا ومد يده نحو الباب فاعتدل الرجال الخمسة وغادروا غرفة المجلس الاعلى والجنود يدفعونهم فى غير رفق .

الفصل الرابع

صـــورتان

اما الصورة الاولى فنرى فيها لينورا دى مارجاس وقد تشبثت بيديها فى الستار المزخرف بالنقوش وراحت تصغى فى قلق متزايد الى الحديث المؤلم الذى يدور بين الدوق الفا وكبار اعيان جنت فى الجانب الآخر .

كانت تحدث نفسها فتقول ان كل ذلك من صنعه هو ... وليس من صنعها ... وانه ما كان يمكنها ان تتصرف بغير ما تصرفت ، وانها لم تفعل غير الواجب الذى املاه عليها ضميرها .

كان هو ، وهو وحده المسئول عن كل ما حدث ، فان حياته لم تكن غير سلسلة من الجرائم والدسائس والغدر ، هو الذى اراد ان يصرفها عن طريق الشرف وان يجعل منها غادرة مثله . كان هذا من عمله ، وهو وحده المسئول امام الله عن العدوان الذى سيقع على المدينة . كانت لينورا واثقة من ذلك تمام الثقة ولكنها ، وعلى الرغم من الاطناب الذى ملأ ابوها اذنيها به طوال الطريق من دندرموند الى جنت فانهـا احست بالرثاء والعطف على هذا الشعب المسكين . وعندما صرف الدوق الفا وفد المفاوضين ادركت هذه المرة ان الدوق لن يوقفه شيء وراحت تتراقص امام عينيها صور من

المذابح والحرائق وارتدت كالتمثـــال الآلى حتى بلغت متعدا فتهالكت فوقه وقد تخلت عنها كل قواها .

وعندما رفعت راسها رات اباها واقفـــا على مقربة منها ينظر اليها وهو يبتسم فارتدت فى مقعدها الى الخلف فقال فى غلظة :

ــ ما كان ينبغى ان ادعك تاتين ، فان هذه الأمور ليست من شان النساء كما قال صاحب الفخامة .

ــ ولكن صاحب الفخامة قال ان من حقى الحضور ... فان لى الفضل فى انتصاركم .

ــ لا شك فى ذلك يا ابنتى ، ثم انك انت التى اصررت على المجىء ، ولو ترك الأمر لى لبعثت بك الى بروكسل مع اينيز . ومازلت انصحك بالرحيل فان جنت ستتعرض للنار والدم ، ومازال الوقت مناســبا للرحيل ، فهل ترحلين ؟

ــ كلا يا ابى . اننى اريد البقاء .

ــ على رسلك اذن يا ابنتى . كنت اتوقع منك ذلك على كل حال فان الدم الاسبانى لا يمكن ان يكذب . ولن تندمى على هذا القرار فان المنظر الذى سوف نريه ليس من السهل نسيانه ابدا . وسوف يسعدك ان ترى ذلك القاتل « ذو القنـــاع الجلدى » والغربان تنهش جسده . لا تخافى يالينورا . سوف ننتقم لابن خالك رامون .

سرت الرعدة فى بدن المراة الشابة ولم تنطق فاستطرد فارجاس :

ــ لم يكن يخطر لك ابدا . ان تصيبى هذا النجاح فى تلك المدة القصيرة . اليس كذلك يا ابنتى ؟

اطبقت لينورا عينيها لانها احست بهوة ترتفع تحت

قدميها ... هوة ذات جدران عالية ملساء ليس فيها اى نتوء او بروز يمكنها التشبث به . واحست بانها تنزلق وتنزلق باسرع ما يمكن نحو القاع حيث يهدر سيل من الدماء القانية . وعلى حافة الهوة ، فوقها ؛ كان هناك رجل ينظر اليها وهى تقع ويخاطبها بصوت جملته المسافة التى بينهما يبدو ضعيفا واهنا ... كان هذا الرجل هو ابوها ، وكان يحدثها عن جنت وعن الثوار وعن الجرائم والحرائق وغرف التعذيب ، ومن ذى القناع الجلدى والمحافظ ولورنس فان ريك ... نعم ، وعن مارك زوجها كذلك ... كان أبوها يقول لها : اين هذا الاحمق المجنون ؟ هل هو فى جنت ام فى دندرموند ام فى بروكسل . انه يريد ان يعرف ذلك لكى ينقذه اذا كان قد بقى فى جنت ، والا فسوف تغدين ارملة من غير ان تدرى وسمعت صوت أبيها ياتيها من بعيد ... من بعيد جدا ... كان يضحك لدعابته السمجة . وردت عليه بضحكة حادة ثم اصابتها صدمة لم تدر بعدها شيئا .

كانت المسكينة قد خرت واقعة على الارض.وحسب السيد دى فارجاس‌ان وعكةأصابت ابنته وانها لن تلبث أن تزول فهز كتفيه وخرج فى هدوء فى طلب نجدة .

اما الصورة الثانية فتعود بنا الى قاعة الطعام الكبرى بكنيسة سانت اجنس حيث ضرب ذو القناع الجلدى موعدا للثوار .

كانت القاعة الكبرى تغص بالثوار الذين بلغ عددهم ضعف ما كانوا عليه بالامس ، فان الخطر الملحق الذى يهدد المدينة الهولندية ربط بين قلوب الاهلين وجعل ما يقرب من ثلاثة آلاف مواطن ينضمون تحت لواء الامير

اورانج . وكان السيد دينوت النائب العام يختتم فى هذه اللحظة ما دار بينهم وبين الدوق الفا من حديث صباح اليوم ، وعندما فرغ من قوله ساله ذو القناع الجلدى ، وكان جالسا فى الصدارة فقال :

ــ اذن فهو قد رفض ؟

ــ نعم . ولا يقبل بغير الامير اورانج .

بقى الرجل المجهول لحظة يفكر ثم وقف فجاة ونزع القناع الجلدى عن وجهه فصاح الجميع مشدوهين :

ــ مارك فان ريك !

ــ نعم . انا مارك فان ريك ، حارس الامير اورانج. انا الصعلوك الخامل المربيد . وقد تمكنت بفضل صفاتى هذه من تادية خدمات كثيرة لقائدنا المحبوب . والآن ، وقد قضى الأمر فاننى استرد شخصيتى واتقدم اليكم كما انا حقا ، فهل مازلتم تولوننى ثقتكم ؟ وهل تتبعوننى للقتال حتى النصر او الموت ؟

فصاح الشباب على الرغم من الاوامر المشددة الصادرة بالتزام السكون التام :

ــ حتى النصر .

وهتف الشيوخ : ــ حتى الموت .

فقال مارك : ــ سنقاتل غدا اذن . سنقاتل جميعا للدفاع عن بيوتنا وزوجاتنا وبناتنا ، وانى اعترف ان فرص الفوز ضعيفة ولكن لا تنسوا ان الله مع الحق وانه لا يتخلى عن الذين يقاتلون فى سبيله .

وعاد الشباب يصيحون :

ــ سننتصر ... سننتصر .

اما الشيوخ فلم يكونوا اقل عزما او اصرارا . ولكن الكثيرين منهم راحوا يفكرون فى قلق كيف يتسنى لرجال

مثلهم يعوزهم التدريب ولا يعرفون شيئا عن فنون القتال المعمود امام جيش اسبانى منظم ومدرب معروف عنه انه احسن جيوش اوروبا . كانوا يعرفون ان نتيجة القتال لاتحتمل اى شك ، ولكن مادام لابد لهم من ذلك فسوف يدافعون عن شرفهم ، ويموتون كما يموت الرجال .

الفصل الخامس

حق الموت

ويعود بنا الخيال الى الوراء بما يقرب من اربعمائة سنة ، وبالتحديد الى اليوم الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٥٧٢ .

فقد بدت المدينة فى فجر ذلك اليوم فى حالة كئيبة . . . مقدمة للموت الذى سوف ينقض عليها بعد قليل ، فقد راحت الاجراس تدق نداءاتها الحزينة فى الفضاء ، واقفرت الشوارع واوصدت الأبواب والنوافذ خلف الشيوخ والاطفال والنساء الذين راحوا يصلون ويبتهلون الى الله . ومرت الساعات كئيبة حزينة لا تنتهى ، وقد خيم على المدينة صمت ثقيل يعيد الى الاذهان صمت القبور .

وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم خرج الدوق الفا من القلعة تحيط به هيئة أركان حربه وحرسه المكون من ثلاث فرق من الفرسان وفرقة من المشاة وخمس فرق من الرماة . وتقدم الدوق حتى بلغ ميدان سوق الجمعة ، واصطفت الجنود خلفه . وكان الميدان مقفرا الا منهم فلم يكن هنالك احد من الاهالى وسدت النوافذ والابواب . وكان يبدو وكأن الدوق مقبل على قراءة بيانه لمدينة من الموتى . ودقت الطبول مطالبة

بالصمت المطبق على الرغم من انه لم تكن هناك حاجة الى ذلك ثم اعتدل الدوق فوق ظهر جـــواده وطالب بصوته الجهورى تسليم الامير اورانج اليه فورا بصفته خارجا على القانون ومقيما فى المدينة بغير سند قانونى .

وفجاة اجابته الصيحات والصرخات من كل مكان فى الميدان :

ــ تعال اذن وخذه ... يحيا اورانج ... كلنـــا فـــداؤه ...

وخرجت من الشوارع المجاورة مئات من الرجـــال وفى ايديهم الحراب والبنادق .

وصاح الدوق بحرسه : ردوا هؤلاء الأوغاد .

ولكن الحرس انقلبوا عليه وانضموا الى صـــفوف الثوار واطلقوا النار على الجنود الاسبان . وفى لحظة خاطفة دار فى الميدان قتـــال عنيف ، وتمكن الجنـــود الوالون بمساعدة الاسبان ، وبعد خسائر فادحة من الرجال والعتاد تمكنوا من رد الاورانجيين حتى مقبرة سان جاك . ولكن تقهقر الثوار كان مؤقتا فقد احتموا خلف جدران المقبرة القصيرة الارتفاع وراحوا يمطرون جنود الدوق الفا وابلا من الرصاص فأردوا منهم الكثيرين. وخرجت من الكنيسة جحافل اخرى من المواطنين . وبدا يظهر على جنود الدوق علامات الانفعال فقد هوجموا على غرة ، وكان عدد المواطنين كبيرا ، وكان الدوق نفسه لا يتوقع قدوم الثوار على مثل هذا الهجوم وخرج الى سوق الجمعة ومعه الفان من رجاله فقط . اما الباقون فقد تفرقوا فى اماكن مختلفة ولم يعلموا بما وقع .

وفى الوقت الذى اخذت فيه جنود الفرسان تتقهقر

ترددت فى داخل المدينة صيحات تقول : الفرار ... الفرار ... وكانت كلها صادرة من المشاة الاسبان وجنود الوالون التى تفرقت فى الأسواق المسقوفة والبيوت الخاصة ودور النقابات العامة ، فان احدا منهم لم يكن يتوقع الهجوم عليهم وكان قد قيل لهم ان فى استطاعتهم ، بعد ان تفرغ أجراس المساء من دقاتها ان ينتشروا فى ارجاء المدينة وان يعيثوا فيها فسادا ويعملوا السلب والنهب كما يشاؤون . ولما لم يكن هناك ما يشغلهم حتى ذلك الوقت فقد راحوا يقتلون وقتهم فى الشراب ويحلمون سلفا بما سوف يجنونه من خير وثمار. ولكن ماكاد الثوار يهجمون حتى اسرع بعضهم الى الأسواق المسقوفة والى الحانات فلم يجد جنود الدوق بدأ من الاستسلام ، وتمكن المواطنون من اسر مايزيد على الألف وخمسمائة من جنود الوالون بدون عناء يذكر ..

وازداد القتال حدة وعنفا فى الشوارع والميادين .. وراح الدوق ألفا يصدر أوامره ويحث رجاله عبثا .ورأى وهو يحتدم من الغيظ خيرة رجاله يتقهقرون أمام كثرة الثوار . وكانوا يتقهقرون فى فوضى وبغير نظام وسرعان ما ولوا الادبار عبر الشوارع الضيقة فى طريقهم الى نهر الاسكو ولم يتمكن من عبور الجسر غير عدد قليل منهم لان رماة الثوار اخذوا يطلقون سهامهم فأصابوا معظمهم .

وصاح الدوق وهو يغلى من الغضب :

ــ ايها الجبناء ... ايها الجبناء ... تفرون هكذا أمام هؤلاء الرعاع .. الا تحسون بالعار ؟ ولكن احدا لم يصغ اليه واضطر اخيرا الى عبور الجسر هو وحفنة من رجال المجلس الاعلى ، وأسرعوا الى القلعة يحتمون

خلف اسوارها من غضب الشعب .
ومضت نصف ساعة ثم تسللت من القلعة اشباح تتقدم فى حذر ... ولم تكن هذه الأشباح غير الرسل وقد أوفدها الدوق الى ابواب المدينة ...
ابواب المدينة ... الحمد لرب الاسبان . سوف تأتيهم النجدة من هذه النواحى فان هؤلاء المتمردين حاصروا القلعة من كل مكان ولكن ابواب المدينة مازالت فى ايدى الاسبان ... فبوابة واليورت تحت قيادة سربللونى ، ومع هذا الأخير مدفعان من آخر طراز ومائتا فارس من خيرة الفرسان ولكن اسوأ ما فى الامر ان معظم الجنود كانوا فى قلب المدينة وكان اكثرهم من الوالون الذين لاهم لهم الا التسليم بالمئات .
وراح الدوق يحدث نفسه قائلا :
ـــ مسألة وقت لا اكثر . لا يمكن ان نقوم بهجوم مضاد الآن فقد اقبل الليل ، ولكن غدا صباحا تستطيع القوات المرابطة فى ابواب المدينة ان تفك حصار الثوار للقلعة وان تردهم على اعقابهم مدحورين .
وتتابعت الرسل وراح الرجال وهم شبه عراة يتقدمون ويزحفون ويسبحون تحت سطح الماء للافلات من مراقبة الاورانجيين ولكن كل محاولاتهم هذه راحت عبثا فلم يستطع اى منهم اجتياز الارض الفضاء المكشوفة الممتدة بعد القلعة ، فان الثوار كانوا قد احتلوا كل البيوت الواقعة على الضفة الاخرى من نهر الاسكو وقاموا بالحراسة أمام النوافذ فلم يستطع اى رسول الافلات من رصاصهم أو سهامهم . وهكذا وجد الدوق الفا نفسه حبيسا فى القلعة ومعه ثلاثة او اربعة آلاف رجل وقد انقطعت بهم كل صلة بالخارج هذا فضلا عن ان جنود الوالون لم يستطيعوا تنظيم

صفوفهم . وقد حاول الذين نجوا منهم من دور النقابات العامة اللجوء الى ابواب المدينة ولكن الثوار تعقبوهم في غير هوادة اورحمة . كان الثوار يظهرون في كل مكان وكان يبدو انهم نظموا صفوفهم ، وكانوا يستخدمون اسلحة المانية من احدث طراز اما قائدهم فكان يغدو هنا وهناك غير هياب ولا وجل لايعتريه ضعف او وهن ويبدو امام اعين الاسبان والوالون كانه كائن من عالم آخر لم يكن يلبس درعا وانما كان يرتدى ثيابا ضيقة من الجلد ويغطى وجهه بقناع من الجلد يجلجل صوته فى ارجاء الميدان الكبير تارة ويرن صداه فى المقابر تارة اخرى . كنت تجده فى كل مكان فى نفس الوقت .

وقد اصاب هو نفسه برصاص مسدسه ثلاثة من رسل الدوق الفا .

ولنعد الآن الى القلعة فنجد الدوق الفا يذهب للقاء جيان دى فارجاس ويساله قائلا :

ــ اين ابنتك ؟

ــ لا ريب انها فى الكنيسة .

ــ لا يجب ان تخرج هذه الليلة ارسل اليها من يقول لها ذلك .

ــ ولكنها تعنى بالمصابين والجرحى يا صاحب الفخامة ولن ترضى ان تتخلى عنهم .

ــ لا بأس . قل لها الا تخرج من القلعة لاى سبب .

ــ يخيل لى انك خائف يا مولاى .

فأجاب محنقا : ــ انا ؟ ... ابدا . سوف نسوى امر هؤلاء المتمردين بكل تأكيد . ليتنى اتيت معى بفرق من الجنود الاسبان بدلا من هؤلاء الوالون الجبناء ، فهم اما ان يستسلموا للذبح كالخراف واما يولون

الادبار كالارانب . لقد ذكر لي فبتلى انه فقد مايقرب من الف وان الثوار اسروا الفا آخر .

واتى بحركة تدل على الياس واستطرد :

ـ ما كان ينبغى أن تتقهقر هكذا من ولكن من كان يظن ان هؤلاء الملعونين يقاتلوننا هكذا فجاة آه ... ولكنهم لن يستمتعوا بهذا النصر طويلا . ان معنا هنا الفين من الرجال ... اما هم فليسوا باكثر من ثلاثة آلاف . نعم . ان الظلام هو الذى منعنا من الهجوم ، ولو انه كان تحت يدى ما يكفى من الجنود الاسبان لقمت بهجوم ليلى مفاجىء ولكن ما العمل وليس تحت يدى غير جماعة من الجبناء العاجزين . سنشق طريقنا غدا صباحا وسوف نرى .

ـ الا نستطيع خلال ذلك ان نطلب نجدة من دنورموند ؟ ان الحامية هناك كلها من الاسبان .

ـ ولكن من الذى يذهب لاخطارهم . ان هؤلاء الاشقياء يراقبون كل الطرقات فيما عدا الناحية الشمالية من القلعة وفى هذه الناحية الاخيرة كما تعرف مستنقعات لا يمكن اجتيازها . كلا . كلا . لا أمل لنا فى قدوم نجدة الا اذا خرقنا صفوف الاعداء . لا أدرى لماذا لم يسرع لورونو وسر بللونى الى نجدتنا . لسوف اشنقهما امام رجالهما .

ولم يجب فارجاس واسرع بالانصراف ليطلع ابنته على امر الدوق . وكانت لينورا راكعة تصلى فنهضت ولجات الى مسكنها فى صمت وهدوء . كانت قد مضت ثمان واربعون ساعة منذ ان اكتشفت الحقيقة المروعة ... ثماني واربعون ساعة مشحونة بالكوارث الرهيبة والرؤى التى يتخللها اشباح الموت ... لقد

كان يوم الامس من ابشع أيام حياتها وهى تنتظر رد ابيها .

ولكنها اليوم هبطت الى أعمق أعماق القنوط والعذاب . وكان وجود جريتا الى جوارها فى هذه الساعات العصيبة عزاءها الوحيد ، فهى قد اكتشفت ان الفتاة تضم بين جوانحها قلبا من ذهب ، وبقدر ما كانت ثرثرة اينيز المستمرة تثير ثائرة المراة الشابة بقدر ما كانت تجد فى كلمات جريتا الساذجة البسيطة بلسما شافيا لجراحها . وكانت الفتاة الهولندية ، من ناحيتها قد احست بالميل نحو لينورا وادركت ما تعانيه من يأس وان لم تدر له سببا .

وعندما قدم دون فارجاس الى دندرموند الحت لينورا عليه لكى يسمح لها بان ترسل اينز الى بروكسل وان تصحب جريتا معها الى جنت ، وقد قطب فارجاس حاجبيه ولكنه لم يسعه الا الامتثال لرغبة ابنته . وهكذا كانت لينورا وجريتا هما المراتان الوحيدتان بداخل القلعة . وكانتا تغدوان هنا وهناك تضمدان جراح المصابين . ومن وقت لآخر كانت لينورا تشير الى جريتا وتسرع الفتاتان فتتسلقان الاسوار على الرغم من اوامر الدوق المشددة وكان الحراس يعرفونهما فكانوا لا يتعرضون لهما . وتقف لينورا فوق الاسوار وتنظر الى مياه الخندق السوداء والى شواطئه باحثه متفحصة . وكان الخندق مملوءا بمئات الجثث ، يحدق اصحابها فى السماء بعيون فارقتها الحياة . وكانت لينورا تبحث بينهم عن جثته . واذا لا تجد لها اثرا تتنهد فى اسى وتأخذ بيد جريتا وتعودان الى القصر .

كانت قاعة دير سانت اجنس مزدحمة كخلية النحل فى تلك الساعة فقد تواعد زعماء الثوار على لقاء المواطنين ، وكان عددهم قد ازداد منذ الامس فما انطلقت الرصاصة الاولى فى ميدان سوق الجمعة حتى اسرعوا بالمئات الى مخازن الاسلحة كل منهم يطالب بسلاحه لخوض المعركة ، وكان امرهم يدعو الى الاستغراب حقا فقد قابلوا عروض الامير اورانج ومطالبته لهم بالمال منذ اربعة ايام فى برود مفضلين احناء الرأس لنير الاستعباد الاسبانى بدلا من تعريض مدينتهم للدمار الذى تعرضت له مدن مونس فالنسيين وملينى ، ولكنهم الآن ، بعد ان اصبح الخطر يكمن داخل جنت نفسها ، وبعد أن تعرضت نساؤهم وبناتهم لعسف الجنود وغلظتهم هبوا كلهم كفرد واحد للنضال وهم واثقون ان القتال سوف يكون مريرا وانهم سيلاقون الموت حتما لان هناك فارقا كبيرا بينهم وبين الجنود الاسبان ، فهم لا يجيدون القتال ثم ان العدو يفوقهم قوة وعددا . ولكنهم لم يبالوا بكل ذلك انه اذا كان لابد لهم من الموت فسوف يموتون والسلاح فى ايديهم . وسوف يعرف العالم ذات يوم ان اهالى جنت لم يقصروا فى اداء واجبهم نحو شرف جنسهم .

وهكذا اقبل الى كنيسة سانت اجنس أكثر من خمسة آلاف مواطن التفوا حول الزعماء الرئيسيين وهم مارك فان ريك واخوه لورنس ، والسيد فان بيفرن والسيد فان دينزوجان دى ميجرود . ومر الجميع امام مارك واقسموا له يمين الولاء والاخلاص وقد ادهشهم ان يروا البريق الذى يتالق فى عينه ، لم يكن فى نظرته ما يدل على التيه أو الزهو وانما كانت تطالعك فى عينيه

ارادة حديدية تدل على انه لا يستمد قوته من باس بطولي وانما من وثوقه وايمانه بتدخل العناية الالهية لصالح الثورة .

وعندما بزغ الفجر كان علم اورانج لايزال يحقق فوق مقبرة سان جاك . وكانت النار تندلع من احد البيوت القريبة . وكان برج سان جاك قد انهار واحترق فندق سان جان عن آخره واصبح رمادا .

والحق ان موقف الثوار كان على الرغم من النصر الذى أحرزوه بالامس غير مشجع فقد مات بيير فان اوفريك واصيب جان فان ميجرود اصابة بالغة . وكان لورنس فان ريك بادى الاعياء والارهاق ولقى خمسة من الضباط وعشرون مدفعيا حتفهم حول القلعة المحاصرة وأصيب ستمائة اصابات مختلفة وامتلأت الشــوارع بجثث الموتى .

وعلى الرغم من ذلك فقد وقف مارك فان ريك يقول فى صوت جهورى ايقظ الذين كانوا لايزالون يغطون فى النوم .

ــ الى السلاح يا أهالى جنت ... الى السلاح .

ورد رماة الاعداء على صيحته يوابل من السهام مر احدها بجوار وجهه فصاح أحد رجاله :

ــ ابتعد يا فان ريك ... ماذا يكون مصيرنا من بعـدك ؟

ولكن مارك لم يعبــأ بالخطر وتخلى عن بندقيته وامسك بالقوس واخذ يجرى من مكان لآخر فيحل محل الضابط الذى يخر صريعا ويصدر اوامره لهذا او ذاك

ويبث فى الجميع الامل والرجاء وقد تمزقت ثيابه واسود وجهه من البارود .

ودقت اجراس الصباح ودار بخلد الجميع ... الاسبان والوالون والهولندين فكرة واحدة هى وقف هذا القتال الاخوى والركوع جميعا للصلاة فى القلعة وفى غرفة المجلس الأعلى تلا الدوق ألفا وفارجاس صلاة قصيرة ما كادا يفرغان منها حتى لوى الدوق شفتيه وقال :

ـ والآن ... الى الشوط الثانى .

ومشى بخطوات واسعة إلى النافذة . وكانت المدينة تمتد امام بصره فرأى البيوت الامامية وقد دمرتها الحرائق ونيران المدفعية ، كما راى عمودا كبيرا من الدخان يتصاعد من ناحية كنيسة سان جاك . اما فى داخل القلعة فقد راى الجنود يتاهبون لاستئناف القتال كما أبصر الثغرات الخمس التى احدثتها مدفعية الاورانجيين بالأمس ، وجثث الموتى التى امتلأ بها الخندق .

وتناهت الى اذنيه انات المصابين ولكنه لم يعبأ بكل ذلك وهز قبضته غضبا وقال مزمجرا :

ـ لو ان جنودى الاسبان معى لدمرت هذه المدينة اللعينة منذ وقت طويل .

وتتابعت الساعات وتضاعف عدد الجرحى والقتلى فى المعسكرين . وفى نحو الساعة الثانية من بعد الظهر تمكن الثوار من هدم جزء من سور القلعة محدثين

بذلك ثغرة كبيرة . وقال الكابتن اميلا فى ياس :

ــ لن نستطيع الصمود حتى الليل يا مولاى لقد مات منا مائتان فى اقل من ساعتين ، واذا لم تاتنا نجدة فنحن من الهالكين .

فصاح الدوق : ــ نجدة ؟ ... نجدة ؟ ... ومن اين تريد ان تاتينا هذه النجدة ؟

كان الطريق يمتد فى الناحية الشمالية الشرقية للقلعة حتى مدينة دندرموند حيث يشرف الضابط جونسالردى براكا مونت على خمسة آلاف اسبانى . وكان الدوق الفا يعلم ذلك ويعلم ان النجدة المرجوة يجب ان تاتيهم من هذه الحامية ، ولكن كان يقع بين القلعة والطريق المذكور المؤدى الى دندرموند مستنقع اسفنجى متحرك يشغل مساحة كبيرة من الارض . ولم يكن الثوار بحاجة الى حراسة هذه الناحية لان الطبيعة تكفلت بذلك ، فقد ارسل الدوق رسله ثلاث مرات متتابعة فى ذلك اليوم عبر ذلك الطريق وراى كل منهم يهبط السور بواسطة الحبال ثم يتقدم فى حذر خلال الاعشاب النامية والبوص ولا يلبث ان يتمايل كالسكران ويمد يديه الى الامام كما لو كان يريد التشبث باى شىء ثم يغوص فى الأوحال شيئا فشيئا حتىيختفى ولا يظهر له اثر بعد ذلك . ولما راى الاخرون ان ثلاثة منهم لقوا حتفهم بهذه الطريقة رفضوا التقدم وادرك الدوق انه لن يلقى منهم بعد ذلك الا التمرد والعصيان. وقال افيلا فى غير اقتناع :

ــ ان خسائر الثوار اكثر من خسائرنا .

هز الدوق كتفيه ولم يجب فعاد أفيلا يقول :
ـ لاريب أن ذخيرتهم نفدت ..
فقال الدوق عابسا : ـ وذخيرتنا كذلك .
ـ اننى واثق ان الاتصال قد تم بين لود رونو وسر بللونى ، ولا ادرى كيف ان حاميتى البوابتين لم تخفا الى نجدتنا .

خرج فارجاس عن صمته وقال فى ضحكة مريرة :
ـ ذلك أن الهولنديين يقاتلون كالأسود . انهم لن يفقدوا شيئا ويعرفون ان الموت ينتظرهم ويقامرون بحياتهم .

وقال الدوق الفا وهو يتميز غضبا :
ـ هذا صحيح . واذا لم يكن لودر ونوسر بللونى على شىء من الذكاء ليبعثا برسول الى دندرموند فان هؤلاء الكلاب الهولنديين كفيلون بالاستيلاء على القلعة واخذى اسيرا لاملاء شروطهم على ، ذلك الا اذا آثروا ذبحنا جميعا ولن يدهشنى ذلك .

فقال افيلا : ـ ولكنهم لم يستولوا على القلعة بعد .
وقال فارجاس فى صوت مضطرب :
ـ كم من الوقت نستطيع ان نصمد ؟
ـ بضع ساعات او اكثر قليلا ، اذا كان الثوار قد فقدوا من الرجال اكثر مما نعتقد ، فان لدينا ثلاثة آلاف مقاتل وكمية كافية من الذخيرة وسنستخدم الطوب والحجارة لسد الثغرة . ان الهجوم الاخير كلف الثوار مائة من الرجال ويمكننا الصمود حتى هبوط الليل ولكن اذا هوجمنا هجوما جماعيا صباح الغد فاننى أخشى ..

وجيء فى هذه اللحظة برجل عارى الجسد تغطيه الاوحال قال فى صوت واهن :

— اننى قادم من بوابة برابورت يا مولاى . وقد اجتزت المستنقعات فانا من أهالى جنت واعرفها جيدا ولهذا السبب ارسلنى سربللونى .

— وما هى اخباره ؟

— ليست على مايرام يا مولاى . فان الثوار هاجموا الابواب الثلاثة هجوما عنيفا ، وموقفنا فى بوابة برابورت لا يبشر بالخير ، والضابط سريللونى يطلب نجدة قبل منتصف الليل .

فصاح الدوق : — نجدة ... انه لاحمق مافون ... اننا نحن الذين نحتاج الى نجدة لاننا محاصرون .

— ان الضابط سريللونى طلب الامدادات من حامية تندرموند ، ويرجو أن تصفح له لاقدامه على ذلك من غير الحصول على اذن منك .

لمعت عينا الدوق ببريق الفرح ولكنه لم يجب على الفور لانه لم يشا أن يلحظ مرؤوسوه ، ولا حتى فارجاس نفسه مدى ارتياحه . وبدا عليه التفكير ثم قال أخيرا فى غير اكتراث :

— كم فارسا ارسل ؟

— ثلاثة رجال يا مولاى . لم يكن لدينا جياد لان الثوار استولوا عليها فذهب الرجال الثلاثة سيرا على الاقدام وسيحاولون العثور على جياد فى الطريق .

— ومتى أنطلقوا ؟

ـــ عند الظهر يا مولاى .

قطب الدوق حاجبيه وغرق فى لجه عميقة من الافكار . سيذهب الرسل الى دندرموند سيرا على الاقدام ، ولن يصلوها الا مع الليل ومن الجائز ان يبدأ براكامونت السير على الفور ، ولكن من الجائز ايضا أن ينتظر حتى الغد ، واذا صح هذا فلن تصل النجدة قبل مساء الغد وفى اثناء ذلك . . .

ـــ كم عدد موتاكم فى برابورت .

ـــ مائة وعشرون ، واكثر من ثلاثمائة جريح . . . ضد مائتاالنا يا مولاى .

فرماه الدوق بنظرة صارمة وقال :

ـــ هل تعرف انه يدور بخلدى أن اقتلك يارسول الشر .

ثم انفجر ضاحكا لأن الرجل اطلق صيحة تدل على مدى ذعره وجرى نحو النافذة المفتوحة يبغى الوثوب منها ، ولكن أحد الحراس اعترض طريقه واعاده الى الدوق الذى قال :

ـــ لو اننى أريد قتلك حقا أيها المأفون ما استطعت الافلات منى أبدا . . . لا ترتعش هكذا واذهب فاغتسل ثم اشبع بطنك وارتد ثيابا مناسبة وتمال لمقابلتى بعد ذلك فسوف امنحك الفرصة لتنجـــو بجلدك ولتؤدى خدمة للملك .

ولما انصرف الرجل صاح الدوق :

ـ مارجاس ... الا تدرى ان غدا الاحد وانه عيد الخلاص .

ـ اعلم ذلك يا مولاى . وهو عيد مقدس واظن ان الذين لن يحضروا القداس غدا سيلقون حتفهم وهم غارقون فى الخطيئة ، لن يذهب احد منهم الى الجنة .

وقال آفيلا : ـ هذا صحيح يا مولاى وقد بدا رجالنا يتذمرون ويقولون انهم لن يخرجوا للقتال غدا ما لم يسمح لهم بحضور القداس .

ـ لعنة الله على هؤلاء الوالون .

ـ ليت الامر اقتصر على الوالون ... ان الاسبان اشد تدينا منهم وهم يخشون لقاء الموت وضمائرهم مثقلة بالخطايا والآثام .

وساد الصمت وراح الدوق يفكر . وبدات خيوط النهار تتراجع امام خيوط الليل . ومرت فترة واقبل رجل طويل القامة نحيل الجسم تبدو عليه مخايل الذكاء ، نظر اليه نظرة فاحصة ثم قال فى حدة :

ـ من حسن حظك اننى بحاجة اليك والا لامرت بقتلك منذ وقت طويل . يلزمنى رسول لايهاب شيئا فهل تستطيع الذهاب للقاء ذلك الوقح الذى يتزعم الثوار .

ـ اننى لا اخشى شيئا غير غضب مولاى .

ـ اذهب اليه اذن وقل له هذه الكلمات : « عندما يهبط الليل ويتوقف اطلاق الرصاص سيهبط الجسر

الذى يربط القلعة بالمدينة وسأتقدم للقائه أنا وأعضاء المجلس الاعلى . قل له أن يتقدم حتى يصبح على مسافة كافية ليسمع كل منا الآخر . سوف أعرض عليه اقتراحا يتعلق بسلامة مواطنيه وله أن يتخذ احتياطاته كما يشاء . ولكن قل له أن ثلاثمائة جندى يرابطون فوق أسوار القلعة ويصوبون بنادقهم اليه وانهم سوف يرمونه بالرصاص عند أول بادرة تدل على الغدر من ناحيته . مفهوم ؟

وبعد ساعة من هذا الحديث انزل الجسر ، وكان الظلام حالكا ولكن الحرائق التى اندلعت فى قلب المدينة كانت تضىء السماء بلهيبها . وخرج الدوق ممتطيا صهوة جواد ، ويتقدمه حملة المشاعل وحرسه المكون من رماة السهام وخلفه ضباطه وأعضاء المجلس الاعلى . وتوقف الجميع بعد الجسر مباشرة ، ولم يكن يفصل بينهم وبين مواقع الاورانجيين غير الأرض الفضاء التى غطتها جثث الموتى .

وتحرك شىء فى الظلام فجأة ثم ظهر ضوء مزدوج اخترق الظلمات واخذ يكبر بسرعة ولم تلبث أن ظهرت جماعة من الرجال يتقدمهم رجلان من حملة المشاعل توقفت على بعد خمسين مترا من الجسر .

ووقع ضوء المشاعل على وجه الرجل الذى يتصدر الجماعة . كان رجلا مديد القامة عريض الكتفين ممزق الثياب حاسر الراس أسود وجهه من البارود ما كاد فارجاس يراه حتى هتف دهشة وغضبا :

— مارك فان ريك . . . ماذا يفعل هنا ؟

ونظر الدوق اليه وقال متهكما :

ــ آه . آه ... لاشك فى ان زوج ابنتك قد انضم الى الثوار ... اخشى ان تصبح ابنتك ارملة بعد قليل .

ثم تحول الى الاورانجيين وقال :

ــ اريد ان اتحدث مع الثائر المعروف باسم « ذو القناع الجلدى » .

اجابه مارك : انا هو « ذو القناع الجلدى » فتكلم.

ارتفعت صيحات الدهشة والغضب بين الضباط الاسبان وتذكر الجميع الامسيات الجميلة التى قضوها فى الشراب برفقة هذا الخامل مارك فان ريك الذى جمع منهم بهذه الطريقة كل مالديهم من معلومات .

وقال فارجاس : مما يؤسف له اننا لن نستطيع شنق هذا الوقح اكثر من مرة واحدة .

ولكن شخصية المتمرد لم تكن لتعنى الدوق الفا فى شىء فهو لم ير أمامه فى تلك اللحظة غير الغريم الذى يجب أن يتفاوض معه ليعرف كيف يضرب ضربته الساحقة فيما بعد ، فان النجدة التى يجب أن تأتيه من دندرموند لن تصل قبل اربع وعشرين ساعة . وقال :

ــ هل قدمتم تدوم الأشراف ام الخونة ؟ ... اذا كنتم تنوون الخيانة والغدر فالبثوا مكانكم ولا تقدموا خطوة واحدة والا رميناكم بالرصاص ، أما اذا كنتم اتيتم اشرافا فاننى على استعداد للتفاوض معكم .

فأجابه مارك بصوته الواضح :

ــ انك تعرف مشاعرنا نحوك يا صاحب الفخامة . انك ارسلت رسولا وقد عاد اليك دون ان يلحقه منا أى اذى . ثم انك اتيت ورجالك على مرمى سهامنا ومع ذلك فلم يصبكم شىء . اننا آذان صاغية

ــ اسمعوا اذن ولكن لا تمنــوا انفســكم بالآمال الكاذبة ، فما انتم الا ثوار متمردون ، واذا سلمتم بدون قيد ولا شرط فربما تنقذون المدينة .

ــ لا تقلب الاوضاع يا صاحب الفخامة ، فانت تعلم تماما اننا لم نقهر ، ثم انك انت الذى طلبت التفاوض

فاجابه الدوق : اننى لا اطلب شيئا وانما اطالب .

ــ حسنا . مادام المغلوب هــو الذى يشترط فلنر ما يريد .

ــ غدا يوم الاحد ايها المتمرد ، فهل تراك نسيت ذلك ؟

ــ كلا ايها الطاغية ، وقد حرم الله العمل يوم الاحد ولكنه لم يحرم القتال فى سبيل تحرير الوطن .

ــ انه امرنا ان نحضر القداس فى هذا اليوم بالذات لانه عيد الخلاص ، فهل بلغت بك الزندقة حتى تنسى هذا .

ــ انا نحترم يوم الخلاص بقدر ما تحترمونه أنتم .

ــ ولكنك تريد ان تمنع عباد الله من الصلاة فى امن وسلام .

ــ سوف نصــلى لاولئــك الذين جعلهم استبدادك وطغيانك سجناء بين اسوار القلعة .

ــ هذا غير صحيح فان لرجالى مطلق الحــرية فى الخروج لحضور القداس فى كنائس المدينة ، فهل تجرؤ على ذبحهم وهم يعبدون الله ؟

لم يجب مارك على الفور ولكن أصحابه ادركوا دهاء الدوق وصاحوا يقولون :

ــ لا تصغ اليه يا فان ريك . تذكر اجمونت ودى هورن . ان هذا الافخ ينصبه لنا وان كل كلمة من كلماته لتقطر كذبا ونفاقا .

اصغى الدوق اليهم فى صمت . كان يعرف ما يريد ... بضع ساعات لاسترداد الانفاس ريثما تصــل امدادات دندرموند الى ابواب المدينة . وعندما خفت حدة الاصوات فى المعسكر الاورانجى قال :

ــ ان الخونة يرون الخيانة فى كل مكان . ان موقفى صريح وصادق . ثم انه لا يتنافى مع تعليمات الله ، واذا رفضتم فسوف تتحملون المسئولية امام الآلاف من الارواح الخالدة .

وأجابه مارك فان ريك :

ــ ولكننا لم نعرف بعد ماذا تريد ؟

ــ نريد هدنة من الصباح حتى المساء ... فغدا عيد الخلاص ، ونريد حضور القداس فى أمن وسلام ، ونتعهد نظير ذلك ان نترككم فى سلام ريثما تصلون وتدفنون موتاكم .

ــ هدنة حتى مساء الغد ؟ بل قل حتى تأتيك نجدة من الحاميات المجاورة . كلا ... اننا لا نقبل .

— آه ، لا تقبلون . انكم رفعتم السلاح ضد ملككم الشرعى وتقاتلونه منذ يومين وليلة ، واذا قاتلتم غدا فانكم تزيدون الى جرائمكم جريمة انتهاك الحرمات المقدســـة .

— خل عنك هذا الخبث . اتراك كنت تحترم يوم الخلاص أيها الطاغية لو اننا لم ندافع عن انفسنا ؟ اكنت تعدل عن تدمير مدينتنا وذبح مواطنينا ؟

وصاح الاورانجيون قائلين :

— مرحى يافان ريك ... مرحى ...

اما الدوق فاستطرد غير عابىء بالرد على اسئلته :

— ان الارواح الخالدة التى ستدفع بها الى الجحيم باصرارك هذا ستعود يوما وتنتقم .

— الا يمكنكم الصلاة فى القلعة ؟

— ليس لدينا كاهن ليلقى القداس .

— سوف نرسل اليكم كاهنا من عندنا .

— ولا يوجد بالقلعة كنيسة للصلاة .

— لا أهمية لهذا ففى مقدور الكاهن أن يلقى بعظته فى الخلاء . ان جنود الوالون الذين اسرناهم يقنعون بالصلاة فى دور النقابات العامة .

— لا أوافقك على هذا . ان الاسبانيين لا يرضون به فهم ليسوا كالوالون . اننى عرضت عليك اقتراحـــا فاما ان تقبله واما ان ترفضه . وليكن معلوما أن الذين سيلقون مصرعهم بعد ذلك سينتقمون فاننا بعد ان نقهركم سيفتك الطاعون وغيره من الامراض باولادكم ونسائكم .

ارتفعت اصوات المواطنين تقول للمرة الثانية :

ــ هذا خداع على حذر يا فان ريك .

ولكن تحذير الدوق فى هذه المرة كان قد احدث مفعوله فى قلب مارك فان ريك ، فان الشوارع كانت قد امتلأت حتى هذه اللحظة باكثر من الفى جثة ، ولم يكن هناك من يجهل الكوارث التى تتفشى فى المدن المجاورة بسبب الطاعون ، هذا فضلا عن أن كثيرين من الرجال كانوا يشعرون باستياء كبير لعدم تأديتهم الشعائر الدينية . وكانت الغالبية الكبرى من الاورانجيين على استعداد لقبول مبدأ الهدنة تهدئة لضمائرهم . وادرك الدوق ما يعتمل فى نفوسهم كما ادرك ان كفته آخذة فى الرجحان فقــال :

ــ ايها المتمردون .. هل نسيتم ان المسيح ضحى بحياته من اجلكم . سوف تدق اجراس عيد الخلاص غدا . وانتم قد اسأتم حتى الآن الى ملككم ، ولا اخالكم تجرؤون على الاساءة الى ربكم . غدا اننا كاثوليكيون ولا نرضى بذلك ونمنحكم هذه الهدنة التى ترفضونها . سيخرج جنودى الاسبان والوالون غدا . وســاخرج انا بنفسى مع ضباطى ورجال المجلس الاعلى لحضور القداس فى كنيسة سان بافون ، وسوف نكون عزلا من السلاح ، فعودوا الى معسكركم ايها المتمردون وقولوا لمواطنيكم ان الآلما من الاعداء سيلقنونهم درسا فى الايمان والثقة بالله .

فقال مارك فان ريك : وفى اثناء ذلك تبعث فى طلب النجدة من دندرموند او من آلوست او انغرس فنجد فى المساء خمسة آلاف مقاتل عند الابواب .

رفع الدون الفا يده فوق راسه كما لو كان يستشهد بالله وصاح يقول فى صوت مهيب :

ـ اقسم لكم اننى لن ابعث باى رسول خارج المدينة طوال الهدنة ، واقسم لكم كذلك اننى لم ابعث حتى الآن باى رسول خارج المدينة لطلب النجدة ، ولتقع على اللعنة الى الابد اذا كنت من الكاذبين .

وقد ذكر الذين حضروا هذا الحديث انه فى اللحظة التى نطق فيها الدوق الفا بهذا القسم الباطل ظهر فى السماء بريق ارجوانى ، وكان ظهوره فجاة وعلى غير انتظار بحيث ان الدوق نفسه انبهر ورفع يده الى عينيه على الفور . ويؤكد فيليب دى لانوى المؤرخ المعروف ان الضوء كان احمر قانيا كلون الدم وانه اعتقد انه انذار من الله للهولنديين لكى لا ينتهكوا الحرمات المقدسة بالقتال فى مثل ذلك اليوم المقدس ، وان اعتقاد ، هذا جعله يستخدم نفوذه لدى مارك فان ريك لكى يقبل الهدنة المعروضة . وانضم زعماء الهولنديين الى فيليب دى لانوى يحثون مارك على القبول ، ولكن هذا الاخير كان يعرف طبيعة الدوق المخادعة فقال .

ـ ان الله معنا . سندفن موتانا عندما نستطيع ولنبتهل الى الله لكى يمنحنا الوقت لذلك . ان قضيتنا عادلة وسوف يغفر الله لنا اذا نحن قاتلنا غدا لنيل حريتنا . الا تفهمون انهم متعبون وان قواهم قد انهكت ولا يطلبون الهدنة الا لذلك .

ولكن الصمت الذى قابله لم يدع له مجالا للشك فى

بشاعة قوله . وقال السيد فان دينز معبرا عن رأى الاغلبية :

ـ يجب ان تقبل يا مارك ، من اجل زوجاتنا واولادنا ... يجب ان تحترم تعاليم الله ... ان الطاغية قد اقسم اغلظ الايمان ، وما نخاله يفعل ذلك الا اذا كان صادقا .

وصاح الدوق فى صبر نافذ :

ـ اننى انتظر ردكم ايها المتمردون .

فتحول مارك اليه وقال :

ـ ماذا يسعنى ان اقول لك . انك وعدتنى ان يخرج رجالك عزلا من السلاح ولا يمكننا ان نهاجم اناسا مسالمين .

ـ وهل تدعهم يصلون دون ان نتعرض لهم ؟
ـ نعم . لن نتعرض لهم طالما بقوا من غير سلاح .
ـ الى ان تدق اجراس المساء ؟

ـ هو ذلك .
ـ وبقى كل منا فى مواقعه الحالية .

ـ نعم ، وعليك اللعنة اذا كنت من الخائنين .

ولم يجب الدوق ولم يبد على وجهه ما ينم عما يختلج فى اعماقه ولوى عنان جواده وعاد من حيث اتى دون اسراع .

وعندما اختفى آخر جندى اسبانى فى القلعة اصدر مارك فان ريك اوامره لرجاله قائلا :

ـ فان دينز . . . يجب أن تجمـــع الفرســـان عند انقاض « السلخانة » . اما انت يالورنس فضع ثلاثمائة من الرماة الممتازين تحت سقيفة سوق السمك ، وانت يالانوى ، ليكن رجالك على أتم الاستعداد عند كنيسة سان بافون ـ اما أنت يا جروينروك فعلى رجالك ان يرابطوا عند كنيســة ســـان فارائيلد وليكن كل منكم مسلحا . دعوا الاسبانيين يقومون بصلواتهم فى أمان ولكن لا ترحموهم اذا ما بدرت منهم أية بادرة .



الفصل السادس

صــدق وخــداع

ما ان طلع صباح ذلك اليوم الخالد فى تاريخ البلاد المنخفضة ، ونعنى به يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٥٧٢ حتى دقت اجراس كنيسة سان بافون وردت عليها اجراس كنيسة سان فارائيلد ثم انضمت اليها اجراس كنيستى سان جاك وسانت اجنس . وقرعت الطبول فى المعسكرين واذيع نبأ الهدنة ، وعلق الجنود داخل القلعة منشورا من الدوق الفا يقول فيه :

« ليكن معلوما ان فى استطاعة الجنود الخروج والذهاب لحضور القداس وليس هناك ما يخشى عليهم منه ، ولكن يتعين عليهم العودة عند الساعة الثانية بعد الظهر . وعليهم احترام الهدنة وممنوع قطعيا التحرش بالاهالى وسنجازى المخالفين بكل شدة » .

وتحول الدوق بعد ذلك الى قائد القلعة ، دون سانتو انيلا وهمس فى اذنه :

— اما انت فانك تعرف اوامرى . فلتنطلق الرسل سرا فى طريق دندرموند لملاقاة الامدادات وحثهم على الاسراع ، ويحسن بك ان تبقى انت هنا ريثما احضر

التداس . وليكن الجنود على اتم الاستعداد بمجرد ظهور الامدادات .

انزل الجسر المتحرك الذى يربط بين القلعة والمدينة بعد ذلك بقليل وخرج من القلعة ثلاثة آلاف رجل لا يحملون اى سلاح بينهم الدوق الفا نفسه وفارجاس والبريك دلريو والمستشار هيسلز وبعض رجال المجلس الاعلى وكانت لينورا تسير مع ابيها والى جوارها جريتا . وبلغوا صفوف الاورانجيين فى صمت واضطروا الى شق طريقهم بين صفين رافعى الايدى فوق رؤوسهم دليلا على انهم عزل من السلاح .

وكان مارك فان ريك واقفا على راس جماعته عندما مرت لينورا متكئة على ذراع ابيها . ورفعت المراة الشابة عينيها وراته ، ودهشت للتغيير الكبير الذى طرا عليه منذ آخر حديث لهما فى دندرموند فقد اختفت تلك الابتسامة الرقيقة الفاتنة التى كانت ان تتغلب عليها وتضيعها . ووقف فى تحد ظاهر وكبرياء ينطقان بقوة ارادته كزعيم يقدر مسئولياته ومهما يكن من أمر فقد كانت تؤثر ان ترى قاتل دون رامون وعدو شعبها وابيها والدوق الفا على هذه الصورة ومع ذلك فما كانت نظراتهما تتلاقى حتى اعربت عينا مارك على طيبة ورقة اهاجتا كل كيانها فاسرعت وحولت راسها واستانفت طريقها تعذبها الافكار المؤرقة من جديد .

وغصت الكنائس فى ذلك اليوم بآلاف المصلين وركع الدوق الفا ومعه كبار رجاله فى ناحية من كنيسة سان بافون فى حين ركع الاورانجيين مع غيرهم من المواطنين ،

رجالا ونساء فى الناحية الأخرى . واصغى الجميع الى الاب فان درشليخت وهو يقرأ عليهم فقرات من الانجيل ويسرد على مسامعهم كلمات الحب والصداقة الطيبة التى تكذبها فظائع الايام الأخيرة .

وكانت لينورا ترى وهى فى مكانها راس زوجها يعلو عن رؤوس غيره من المصلين . وكان الشاب ينظر امامه دون ان يتحرك كالتمثال . ورات المراة الشابة شفتيه تتحركان عندما بدأت الصلاة وخيل لها انها تسمع ذلك الصوت الدافىء المقنع الذى صب فى اذنيها فى دندرموند ... كلا ... كلا .. انها لا تريد ان تسمع ذلك الصوت المخادع مرة أخرى .. وعادت الى مخليتها صورة تلك الغرفة فى الحانة وذراعة العارى الذى ينزف دما والعلامة التى لا تمحى والتى تشير الى قاتل دون رامون وابتهلت الى الله قائلة : يا الهى ... انك عادل فقل لى أن لى الحق فى ان أمقته فانه أصابنى بكل ضرر، وأراد ان يخدعنى وان يجعل منى اداة لغشه ومكره .

وانى واثقة الآن أن الخاطر الوحيد الذى يدور فى راسه هو طمن الذين أحبهم والذين يكرسون حياتهم لحماية دينك المقدس . يالهى ، انك تعرف مدى ضعفى وتعرف أننى لست الا امراة مسكينة وان نظرة واحدة منه تجعلنى انسى كل شىء فساعدنى لكى لا يغلبنى على أمرى .

جلست لينورا فى غرفتها بعد بضع ساعات تفكر فى موقفها وتبذل مجهودا جبارا لتنسى ما راته فى ذلك اليوم . وكان الجو خانقا فطلبت من مرجريت أن تفتح

النافذة وهى تطل على شرفة حديدية تمتد حتى غرفة المجلس الأعلى ومسكن الدوق الفا . وكانت النافذة مرتفعة يمكن الجلوس تحتها من غير ان يتعرض الجالس الى ان يكتشفه من يقف بالشرفة . واحست الفتاة بصداع شديد ورأت جريتا تخفف عنها ففكت شعرها وراحت تمشطه فى رقة .

وسألتها لينورا فجاة :

ــ هل تحبيننى يا جريتا ؟

ــ من سويداء قلبى يا سيدتى .

ــ لا ريب اذن انك ابتهلت الى الله صباح اليوم لكى ينصرنا على هؤلاء المتمردين الممقوتين ؟

لم تجب جريتا ، واغرورقت عيناها بالدموع فقالت لينورا فى صوت رقيق :

ــ ارى ان قلبك يخفق من اجلهم .

ــ ذلك اننى اعرف كل زعمائهم يا سيدتى وهم رجال بواسل ... وعندما يدور بخلدى ما ينتظرهم لا يسعنى الا البكاء .

وراحت الفتاة المسكينة تنشج وانتظرت لينورا لحظة ثم قالت :

ــ وكيف عرفتهم ؟

ــ كانوا يختلفون الى حانة « النساجون الثلاثة » يا سيدتى .

ــ تقولين « حانة النساجون الثلاثة » ؟

— نعم يا سيدتى ... كانت ملكا لابى . وكان اعيان المدينة يختلفون اليها ومنهم السيد مارك فان ريك .

— كنت تعرفين اذن ان السيد مارك فان ريك هو « ذو القناع الجلدى » ؟

— كلا يا سيدتى . لم اعرف ذلك الا امس فقط ، سمعت الجنود يتناقلون ذلك فى فناء القلعة .

— ولكنك رأيت ذا القناع الجلدى قبل أن تعرفى من هو ؟

— نعم يا سيدتى ، فقد أنقذ حياتى وحياة أختى ... ليتنى استطيع انقاذ حياته .

— كيف ذلك ؟ انقذ حياتك ولم تذكرى لى شيئا عن ذلك حتى الآن .

— حدث ذلك منذ أيام قلائل يا سيدتى ، وبالتحديد فى نفس الليلة التى تمت فيها خطبتك ... لسوف اذكر ذلك ما حييت .

سكتت الفتاة والتفت الى الاسبانية نظرة وجلة كما لو كانت قد خشيت ان تدخل فى دور الاعترافات ، ولكن لينورا ارادت أن تشبع فضولها ... ليلة خطبتها ... تلك الليلة التى لقى فيها رامون مصرعه ... حـــانة « النساجون الثلاثة » ... لا ريب أن جريتا اشتركت فى المأساة سواء من قريب أو بعيد ولا ريب انها تعرف الكثير .

— اذا كنت تحبيننى حقـــا فاذكرى لى كـــل شىء يافتاتى .

وبذلت جريتا مجهودا كبيرا وبدات تقول :

ــ كانوا قــد القوا القبض على ابى وشــنقوه فى الاسبوع الماضى .

ــ ولماذا شنقوه ؟ ... ماذا فعل ؟

ــ كان بروتستانيا ... لم يفعل شيئا غير ذلك يا سيدتى .

سكتت جريتا مرة اخرى فقد اصيبت بغصة وسالتها لينورا :

ــ وهل خلوا عنك انت واختك ؟

ــ نعم يا سيدتى . ولكن ذلك لم يطل ، واظن انهم كانوا يشتبهون فينا نحن ايضا ، وكان الجنود يغلظون معاملتنا . وفى مساء اليوم السابع من اكتوبر اقبل الجنود الذين يقيمون لدى المحافظ . وكنــا وحدنا ، وكانوا سكارى ، وكان قد القى القبض على ابينا فى صباح اليوم نفسه .

وبدأ الجنود فى مضايقتنا ثم اقبل ضابطهم ، وكان الليل قد تجاوز نصفهوحسبنا انه سيزجر رجالهويامرهم بالانصراف ولكن بدلا من ذلك عمل على تشجيعهم ثم قال لكاترين ان تهتم بالجنود وطلب منى ان ارافقه الى غرفة اخــرى .

واطرقت الفتاة براسها واضطرم وجهمــا فقــالت لينورا :

ــ اكملى قصتك يا جريتا ... ماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ اواه يا سيدتى ، لقد اغلظ الضابط معاملتى ، وحسبت انه سيقتلنى ، وكان قد طرحنى فوق المائدة واخذ يلوى يدى ، ولكننى لجأت الى ركن قصى من الغرفة وانا أكاد اموت فرقا . وفجاة فتح الباب ودخل منه رجل طويل القامة يلبس ثيابا سوداء ويغطى وجهه بقناع . وجاء الى وخاطبنى فى رقة ونصحنى بان آخذ بعض النقود وان الجا الى دندرموند انا واختى .

ــ وهل تعرفين ماذا حدث فى الغرفة بعد انصرافكما ؟

ــ لم اعرف ذلك الا فيما بعد ياسيدتى . فقد قال لى بيير بوترز الجزار انهم عثروا على الضابط الاسبانى قتيلا فى الغرفة التى تركته فيها .

ــ قتيلا ؟ ... تعنين مصابا بطعنة خنجر ؟

ــ كلا يا سيدتى ، فان السرجنت الذى عثر عليه قال لبيير بوترز ان الضابط لم يكن مصابا باى جرح وانه لم تكن هناك غير آثار اصابع حول عنقه تدل على ان معركة حامية بالايدى دارت بين الضابط والرجل المقنع . وقد ذكر لى بيير بوترز أن الرجل المقنع ما هو الا ذو القناع الجلدى وانه يجب أن اصلى من أجله ان الضابط الاسبانى اصابه بطعنة قد تكون قاتلة ... آه ، نسيت أن اذكر لسيدتى انهم عثروا على خنجر الضابط تحت المائدة مخضبا بالدم ، وقد ظننت فى البداية أن منقذى ملاك هبط من السماء للدفاع عنى ولم اعلم لمن أدين بحياتى غير أمس فقط . وقد صليت صباح اليوم من اجل سلامة السيد مارك فان ريك وساصلى دائما من اجله ..

وامسكت وقد اخافتها الكلمات الاخيرة التى نطقت بها ، فهى على الرغم من جهلها ادركت ، بعد ان سبق السيف العزل ان الكلمات الاخيرة تعتبر اهانة كبيرة للنظام القائم وانها قد تتعرض للتعذيب لهذا السبب ، ونظرت الى سيدتها فى ذعر ولكنها وقفت مشدوهة حين رأت لينورا تبكى بالدمع السخين وبدون تحفظ أو خجل . كانت دموعا حقيقية ولكنها كانت دموع السعادة تنساب على وجنتيها الشاحبتين فقد انقشع حجاب الغموض الذى أحاط بمقتل دون رامون ، وبددت فتاة الحانة بضربة واحدة من يدها الضباب الذى احاط به ابوها المغرض ماساة « النساجون الثلاثة » .. واغرق هذا الاكتشاف الجديد وانفعالات الأيام الأخيرة المراة الشابة فى بحر من الندم طفى على سطحه اليقين ببراءة زوجها واستقامته وسمو روحه .



اسرعت جريتا الى سيدتها فجاة ، وكانت واقفة تحت النافذة فاحاطت كتفيهـا بذراعيها غير مراعيـة لآداب السلوك وهتفت فى صوت خافت :

ــ حذار ... هو ذا صاحب الفخامة .

وبدافع غريزى ارتدت لينورا داخل الغرفة وسمعت وقع اقدام تسير فى الشرفة استدلت منها على أن ثلاثة رجال يسيرون جيئة وذهابا وهم يتحدثون فى صوت خافت وتبينت لينورا فى هذه الأصوات صوت أبيها وصوت الدوق ألفا ، وكانا يتحدثان من خططهما ضد

المتمردين ، والتصقت الفتاة بالحائط وارهفت السمع ، فقد صعد احدهم درجات السلم الحديدية ، ولم تلبث ان سمعت انيلا يقول لاهثا :

— لقد اقبل رسول من دندرموند يا صاحب الفخامة .

— آه ، وماذا يقول ؟

— يقول ان واحدا من رسل سربللونى وصل مساء امس وان براكامونت بدأ السير منذ الفجر وان الامدادات ليست بعيدة عن جنت .

وسمعتهم لينورا يتبادلون صيحات الفرح ثم تكلم فارجاس فقال :

— كانت ضربة معلم يا مولاى .

فقال الدوق : هل تقصد الهدنة ؟ .. ان الهولنديين من الغباء بحيث يسهل التمويه عليهم . لم ازد عن ان اقسمت لهم اننى لم ابعث اى رسول لطلب النجدة فصدقونى على الفور . الا ترى معى انها خدعة صبيانية .

سمعت لينورا اباها يضحك ودلربو يقول :

— ولكن فان ريك لم يصدق هذا القسم .

— ربما لم يصدقه فى البداية ، ولكننى احسنت اختيار كلماتى بحيث اننى اوشكت ان اصدقها انا نفسى .

— الم تخشى ان ينقض المتمردون كلمتهم ويهاجموا رجالنا ؟

ــ ابدا .. وانت ؟ .. هل خشيت ذلك ؟

لم ينطق احد .. وادركت لينورا من صمت ابيها أن هــذا الاخير على الرغم من حقــده على الاورانجيين وازدرائه لهم لا يعتقد انهم يجرؤون على مثل هذا العمل المشين وقال فارجاس بعد لحظة صمت :

ــ مهما يكن من أمر فقد كانت مقامرة كبرى .

وقال الدوق الفا : كان لابد لنا من ذلك ، فقد فزنا بيوم كامل كان من الممكن أن يكلفنا الكثير . فلو أن المتمردين هاجموا القلعة صباح اليوم لما كان فى مقدورنا الصمود أمامهم . اما الآن فبراكامونت فى الطريق الينا وسوف تصل الامدادات قبل هبوط الليل . واذا جاءنا بخمسة آلاف مقاتل فمن المؤكد اننا سنكون أصحاب المدينة من جديد .

ابتعد الرجال الثلاثة وانحنت لينورا الى الخارج واستطاعت أن تراهم يتجادلون امام مدخل غرفة المجلس الاعلى . ولم يكن هناك اى شك فى ان الدوق قد اقسم زورا والتفتت الى جريتا وهمست قائلة :

ــ هل سمعت ؟

ــ نعم يا سيدتى . سمعت كل شىء .

ــ ما معنى كل هذا ؟

ــ معناه أن صــاحب الفخامة طلب النجدة من

دندرموند وان الجنود الاسبانية ستصل قريبا .

ــ ولكن الدوق اقسم اغلظ الايمــان بانه سيحترم الهدنة .

ــ ان الجنود كانوا يتكلمون امس عن قرب وصول الامدادات وكانوا يقولون ان الدوق كان يخشى ان يتغلب الهولنديين عليه ولهذا السبب طلب الهدنة .. اكتسابا للوقت .

ــ ولكن اذا جاءت الامدادات فالهولنديين هالكون لا محالة .

ــ اخشى ذلك يا سيدتى . ان الله وحده هو القادر على انقاذهم .

توترت ملامح لينورا واضطرم وجهها ولمعت عيناها ببريق غريب من القسوة وقالت فجاة :

ــ اليس من المستغرب ان نرى ان الذين نحبهم ماهم الا كاذبون خادعون ؟ اليس من الفظاعة . ان ينقض الموت على قوم شجعان لا لشىء الا لانهم وثقوا فى كلمة مخادع ؟ .. كيف يرضى الله بمثل هذه الفظائع ؟

وغرقت فى تفكير عميق ثم قالت فجاة :

ــ هل تخافين يا جريتا ؟

ــ اخاف ؟ .. مم يا سيدتى ؟

ـــ من كل شيء ؟ .. من الضرب والاهانات والموت؟

ضحكت الفتاة وقالت :

ـــ كلا يا سيدتى .. اننى أؤمن بالله وارجو ان يحمينى دائما .

ـــ هل تاتين معى اذن ؟

ـــ اين يا سيدتى ؟

ـــ الى المدينة وحدنا .. سنقول أننا ذاهبتان الى الكنيسة .

ـــ المدينة ؟ .. اليوم ؟ .. هل ..

ـــ نعم .. نعم .. يبدو لى أنك خائفة .

ـــ لست خائفة على نفسى .. وانما عليك أنت يا سيدتى .

ـــ اجمعى شعرى اذن ثم هاتى قبعتك ومعطفك فاننا خارجتان .

أطاعت الفتاة ، وبعد دقائق قلائل كانت المرأتان على اتم الاستعداد فاجتازتا عدة ممرات وهبطتا السلم الحلزونى وبلغتا باب القصر ، وكانت غرفة الحرس تعج بالجنود ، وهمست جريتا :

ـــ ولكن هل يتركوننا نخرج ؟

ـــ سيرى الى جوارى وارفعى راسك . لا يجب أن يعتقدوا أننا خائفتان .

كان الضابط أفيلا واقفا مع رجاله فلما راى لينورا أسرع اليها قائلا :

ـ هل ترغب الآنسة فى الخروج ؟

ـ كما ترى .

ـ ارجو ان لا تذهبى بعيدا عن الاسوار .

فقالت فى حدة :

ـ وما شأنك انت ؟

قال وقد تملكه الاضطراب امام نظرتها المتعالية :

ـ ذلك ان الاوامر التى صدرت الى يا سيدتى ..

ـ اوامر .. اية اوامر تلك التى تحد من حريتى ؟

ـ الحق يا سيدتى اننى شديد الارتباك فان السيد فارجاس ...

فقاطعته لينورا قائلة :

ـ هل اصدر ابى اوامره لك فيما يتعلق بى ؟

ـ كلا يا سيدتى ، ولكن ...

ـ اذن دعنى أمر فانى ذاهبة لحضور صلاة العصر فى كنيسة سان فارانيلد قبل ان تفوتنى .

ومرت أمامه تتبعها جريتا ، فوقف ينظر اليهما وهما تعبران فناء القلعة مشدوها حائرا ولكنه لم يلبث أن

هز كتفيه وعاد وسط رجاله ليفرغ من لعبة النرد التى كان قد قطعها .

اما لينورا فقد أحست بمخاوفهـــا تعود ، بعـــد ان اجتازت الفناء فقد اعترض طريقها الضابط المنوط به حراسة الجسر المتحرك كما توقعت ، ولكنها مع ذلك قالت له فى هدوء :

ـ اننى ذاهبة الى كنيسة ســان فارائيلد ، وابى يرافقنى .. انه يتحدث مع الضـــابط اميلا .. انزل الجسر لكى نخرج .

ـ معذرة يا سيدتى .. ان الضابط اميلا أصـــدر اوامره منذ لحظات بعدم خروج احد من القلعة .

فرمته لينورا بنظرة ازدراء وقالت :

ـ لا شأن لى بالأوامر العسكرية . .افتح الباب حالا والا ناديت أبى .

كان ارتباك الضابط أشد ارتباكا من اميلا ، ولم يسعه الا الامتثال ، وما كاد الجسر يصل الى مستوى أفقى حتى ركضت لينورا فوقه وهى تجر جريتا من يدها جرا . وامتدت أمامها الأرض المنبسطة التى تفصل القلعة عن المدينة تطالعهما فى آخرها انقاض البيوت التى يرابط فيها الاورانجيون . وكانت الساعة التى انقضت حافلة غنية بالمعلومات بالنسبة لها ، فهى لم تكتشف لها خيانة أبيها وغدر الدوق الفا فحسب ولكنها أثبتت لها

ان الرجل الذى اظهرت نحوه كل هذا العداء وكل هذه البغضاء انما هو جدير بحبها فى الواقع . وهى الآن تسرع الى هذا البطل المغوار تدفعها غريزة لا تقاوم • لكى تطلعه على الشرك الذى نصبه الدوق الفا له ولمواطنيه .

وتحولت الى جريتا وخاطبتها قائلة :

ــ والآن اذهبى بى الى بيت المحافظ .

الفصل السابع

الصدام الاخير

ــ الى الكاتدرائية .. الى الكاتدرائية ايها المواطنون .

كانت الساعة قد بلغت الثانية وقد غصت قاعة الكاتدرائية الفسيحة بالمواطنين الذين اقبلوا مرة اخرى من كل مكان ، وازدحمت بهم القاعة حتى لم يبق هناك مكان لقدم . وكان يبدو على الجميع التعب والاعياء .

وكان النظام يسود القاعة ، اما الذين لم يجدوا لهم مكانا فقد اصطفوا فى الخارج وفى المقابر . وامام الهيكل الكبير وقف زعماء الثورة مارك فان ريك واخوة لورنس وبيير دينوت وليفين فان رينز وفردريك فان بيفرن وجان فان ميجرود الذى لم تمنعه جراحه من المجىء ليؤيد القرارات التى سيصدرها مارك .

وكان بين الحاضرين شارل فان ريك هو الآخر . وكان معروفا بولائه للدوق الفا ، وكان هو الذى ابدى رغبته فى اجتماع الحاضرين كمحاولة اخيرة وقال :

ـ ان الدوق الفا معروف باخلاصه للملك فيليب ، وقد جنب المدينة عقوبات انتقامية عنيفة مرارا كثيرة . والموقف الآن خطير والدوق ينتظر وصول امدادات كبيرة يستطيع بها اخماد الثورة بسهولة ولا يسعنا الان الا ان نقوم بمحاولة اخيرة لنتجنب ماينتظرنا من اهوال واعنى ان نقدم له الدليل على ولائنا واخلاصنا له .

وامسك هنيهة ثم استطرد يقول :

ـ انه جندى كبير وضابط عظيم ، وسوف يقدر مقاومتكم حق قدرها عندما يراكم ، وانتم قاب قوسين او ادنى من النصر ، توقفون هذا القتال الاخوى وتناشدون كرمه .. دعونى اعمل .. دعوا الشيوخ امثالى يذهبوا لتهدئة غضبه فهم اكثر منكم حكمة او بعد بصرا .

كان رد الفعل متباينا فقد ارتفعت هتافات الاستحسان والتأييد وعبارات الاحتجاج والسخط فى وقت واحد . اما مارك وزعماء الثورة فلم ينطقوا بكلمة على الرغم من الغضب الذى يغلى فى صدورهم . ووقف الأب فان شليخت وأخذ يحث المواطنين على الخضوع والولاء للدوق فان الحاكم العام رجل متدين رحيم وسيرى ان فائدته فى الحظوة بامتنان اهالى جنت وعرفانهم بالجميل اجل من الفائدة التى يجنيها من تدمير المدينة . اليس هو الذى طلب الهدنة ؟ .. اليس هو الذى اقترح تخصيص هذا اليوم للصلاة ودفن الموتى ؟

ثم وقف القاضى دى بروك وراح يدلل بالدعايات المختلفة على رقة الدوق الفا وكرمه . وتكلم كثيرون

غيره من الاغنياء واشراف المدينـــة ، وكلهم يؤثرون الراحة والهدوء على الشرف والواجب ، وهم انفسهم الذين فروا ساجدين عند قدمى الطاغية وسلموه مفاتيح ابواب المدينة ، واتفقوا على ان يذهب وفد منهم مكون من السيد شارل فان ريك والأب فان شليخت والاب لورنس فان توش والسيد ديبروك وفرنسوا ديوبترن.

وقال المحافظ وهو يمر امام ابنه مارك :

ــ ارى ان هذا الاجراء لا يروق لك يا مارك .

ولكن مارك هز كتفيه وأجاب :

ــ اننى واثق أنكم تضيعون وقتكم ، فلن تحصلوا على شيء من قلب صلد كقلبه .

وغادر الوفد الكاتدرائية ، والتف الـــكثيرون حول مارك وساله بعضهم :

ــ هل تعتقد ان الاسبانى سوف تلين قناته ؟

ــ كلا ، فهو لا يذعن الا للقوة .

ــ اذن ، ماذا عسانا نفعل ؟

ــ لا شيء . سوف نستانف القتال بمجرد انتهـــاء الهدنة .

ــ ونساؤنا ؟ .. واولادنا ؟

ــ سلوا نســـاءكم هل يرضين ان يلعقن حـــذاء الاسبانى .

ومرت الساعات ببطء شديد ، وكان الانتظار رهيبا

ومملا . وجاء الرد اخيرا فقد عاد الوفد وعلى راسه المحافظ ، حفاة الاقدام ، وحاسرى الرؤوس وقد اوثقت يدا كل منهم خلفه وتدلى من عنقه حبل طويل . كان هذا هو رد الاسبانى .. بل ان الدوق الفا رفض استقبالهم وامر بردهم من حيث اتوا وفى عنق كل منهم حبل لكى يفهم القوم المصير الذى ينتظرهم جميعا . وغادر المحافظ القلعة ومعهاصحابه يشيعهمالجنود بدعاياتهم البذيئة ، بل ان البعض راح يرجمهم بالحجارة . وبعد ان اجتازوا الجسر المتحرك وبلغوا الأرض المنبسطة رماهم الجنود بقذائف من الطين المتجمد أصابتهم بالجراح ووصلوا فى حالة يرثى لها .

غلى الدم فى صدور زعماء الثورة وصاح جان فان ميجرود :

ــ يا أهالى جنت .. انكم تعرفون ما ينتظركم الان ، وواجبنا واضح . يجب ان نموت ابطالا حتى لا يذبحنا الاسبان كالخراف .

ترددت ارجاء الكاتدرائية بصيحات التهديد والوعيد. وكان هناك بعض الشباب المتحمس ومن بينهم شــاب اسمه بيتر ببلد استبسل فى القتال واراد ان يتكلم ليبدى رايه فحمله بعض اصدقائه فوق أكتافهم وشقوا لهم مكانا حتى بلغوا وسط القاعة .

وقال بيتر :

ــ يا أهالي جنت اننا لا نهاب الموت فقد اصبح شيئا ماديا بالنسبة لنا منذ يومين . وسوف نستأنف القتال

مســــاء اليوم فنجعل هؤلاء الاسـبانيين يدفعـــون ثمن استبدادهم وطغيانهم غاليا .

ولكن اذا كنتم تريدون التضحية بحياتكم فان هناك من يجب ان يموت معنا .

ورفع مارك ريك يده مقاطعا الشاب وساله قائلا :

ــ ماذا تقصد يا بيتر بيلد ؟ .. اهو انتقام ؟

ــ نعم ايها المواطن فان ريك .. انتقام وانتقام لابد منه فان الطاغية داس على قوانين الحرب التى توجب احترام الرسل وحسن معاملتهم . انه رجل منافق مخادع ومع عدو مثله يجب تجنب الشرف والعدل . يجب ان نتحدث معه باللغة الوحيدة التى يفهمها ، وهى لغـــة القوة والعنف . يا اهالى جنت ان بين ايدينا الفين من الاسرى الموالون انقطعت بيننا وبينهم صلة الاخوة لانهم تنكروا لنا ورفعوا السلاح فى وجهنا . وانى اقترح ان نقطع أعناقهم ونرسلها هدية للاسبانى وهذا رد فعل على الطريقة التى عامل بها وفدنا .

وتعالت الصيحات من كل جانب :

ــ هو ذلك .. هو ذلك .. لنقطع رقاب هؤلاء الخونة .

ولعل من الانصاف أن نقول ان ما من واحد منهم كان جديرا بالاقدام على مثل ذلك العمل الذى ينطوى على الوحشية ونعنى به قتل اسرى مجردين من السلاح

ولكن الشعب المسكين عانى الكثير فى السنوات الأخيرة وتعرض لشتى أصناف الظلم والجور بحيث ان الغريزة البدائية حلت عند الكثيرين منه محل العدل .

وانتظر مارك فان ريك حتى هدأت الضوضاء ثم قال :

ــ وهل تعتقد حقا يا صديقى اننا من الخسة والجبن والوحشية بحيث نقتل أسرى مجردين من السلاح ؟

ــ أنت الذى تتكلم عن القتل يا فان ريك ؟ .. هل نسيت ان هؤلاء الأخوة الكانبين جاءوا ليقتلوننا فى مدينتنا وليدمروا بيوتنا ؟ .. افلا يحق لنا أن ننتقم ؟

ارتفعت الأصوات والهتافات من جديد وكلها تؤيد بيتر بيلد وتطالب بقطع رقاب الأسرى واسقط فى يد مارك وخشى ان يفلت منه زمام الموقف .

وفى هذه اللحظة ارتفعت صيحة امرأة أجفل لها الحاضرون ، وكانت صادرة من الخارج ولم تكن صيحة ذعر أو يأس ولكنها كانت صيحة توسل ورجاء . وسكت الجميع وتحولت أنظارهم الى الباب فى فضول ، وتناهى الى أسماعهم صوت امرأة تقول :

ــ دعونى أمر .. أريد أن أرى زعيمكم .. انها مسألة حياة أو موت .

وسمعوا أصواتا ترد عليها قائلة :

ــ الجاسوسة .. الاسبانية ..

ثم ظهرت امرتان تشقان طريقهمـــا فى صعوبة ، وما وقعت عينا أطولهما قامة ، وهى لينورا ، على مارك فان ريك حتى أسرعت اليه وارتمت عند قدميه وقالت لاهثة :

ـــ ان خمسة آلاف رجل يقتربون من جنت .. سوف يصلون بعد ساعتين .. فاهربوا جميعا اذا تمكنتم .

بذل مارك مجهودا جبارا لكى يظل محتفظا برباطة جاشه وانحنى فوقها وأخذ ذقنها بين أصابعه فرفعت رأسها اليه وقالت :

ـــانتى قادمة من القلعة ، وليقتلنى أصدقاؤك اذا أرادوا ولكن يجب ان تصغى الى .. ان اليمين التى اقسمها الدوق ألفا يمين كاذبة ، فقد ذهب رسول الى دندرموند .

فقال مارك وهو فى شدة الانفعال :

ـــ وكيف عرفت هذا ؟

ـــ سمعت أنا وجريتا ، منذ قليل حديثا بين الدوق وأبى .. علمت منه أنه طلب الهدنة اكتسابا للوقت لا غير .. وهو يأمل أن تأتيه الامدادات من دندرموند قبل هبوط الليل .

تناقل الناس كلماتها فى ذعر قائلين :

ـــ خمسة آلاف جندى .. خمسة آلاف جندى اسبانى .. نحن من الهالكين .. رحمة بنسائنا وأولادنا يارب .

اما اتباع بيتر بيلد فقد تناسوا نداءاتهم بالذبح والانتقام وطرحوا عن اذهانهم فكرة التمرد امام خطر الموت الماحق. والتفواحول مارك فان ريك ينتظرون او امره وارشاداته .. ولكن الزعيم الشاب لم يكن يشغله فى هذه اللحظة بالذات غير شىء واحد هولينورا . تلك المراة التى يعبدها والتى تحبه ، فهو الآن قد اصبح واثقا من حبها فلولا ذلك ما أسرعت اليه وما خاطرت بكل شىء فى سبيل انقاذه غير مقيمة وزنا لانتقام الدوق الفا ولا لانتقام ابيها ولا لغضب الشعب الهولندى . واحس مارك انه لن يفرق بينهما شىء بعد اليوم غير الموت .

رفعت لينورا عينيها الواسعتين المتلألئتين اليه فاكتشف فيهما لأول مرة كنوزا من الحنان والحب . ولكنها كانت لحظات خاطفة لان زعماء الثورة كانوا قد بدأوا يتحدثون عن الاجراءات الواجب اتخاذها على الفور . ونظر مارك الى لينورا مبتسما للمرة الاولى فى ذلك اليوم وهمس يقول فى اذنيها :

ـ حفظك الله يا لينورا . سيكون حبك لى الدرع الواقى وساغزو به العالم اجمع .

وعهد بها الى الاب فان شليخت ثم تحول الى مواطنيه وقال :

ـ يا اهالى جنت .. امامنا ساعتان .. ان الدوق الفا الكاذب حنث بيمينه وارسل رسولا لطلب نجدة من خمسة آلاف مقاتل واذا لم نقهره قبل هبوط الليل فعلينا وعلى مدينتنا السلام .. هلموا الى السلاح .

وصاح بعض الحاضرين :

ــ الى السلاح .

أما البعض الاخر فقد لزموا الصمت معتقدين انه لم تعد هنــاك جدوى من المقــاومة وقالوا وهم يهزون رؤوسهم فى حزن :

ــ خمسة آلاف مقاتل ، ونحن لا نزيد عن اربعة آلاف .. سيذبحوننا قبل ان نجد فرصة للانتقام .

ــ الموت للجنود الوالون .

بيد ان مارك تصدى لهم هذه المرة وقال ف حزم :

ــ كلا ايها الاصدقاء الاولى بنا ان ننتقم من هــذا المتوحش الذى يلوذ بالقلعة .. لنرغمه على الخروج من ملجئه ولنعامله بكل غلظة

ــ هل جننت يا فان ريك ؟ .. سيكون لديه هــذا المساء ثلاثة اضعاف ما لديه من رجال ، فان أبواب المدينة ستفتح لدخول الامدادات القادمة .

ــ ابدا . يجب ان نستولى علىالابواب وعلى القلعة قبل هبوط الليل .

ــ وكيف يتسنى لنا هذا وليس لدينا ما يكفى من الرجال .. انهم ردوا هجوما بالأمس كما تعلم .

ــ سوف يكون لدينا ما يكفى من الجنود لقهرهم ، وذلك بعد نصف ساعة .

تعالت السخريات والتهكمات من كل جانب وصاحوا يقولون :

ـــ لا ريب انك تهذى . ان كل رجالنا الأصحاء هجموا على الثغرة امس.ونصفهم لايعرف كيف يمسك الحربة ولا كيف يستخدم البندقية .

ـــ هذا صحيح . ولهذا يلزمنا ألفان من الجنود المدربين لنكون أكثر عددا من جنود الدوق ألفا ولكى نستطيع التغلب عليهم .

ظن البعض ان مسا من الجنون أصابه وهزوا اكتافهم قائلين :

ـــ ألفان من الجنود ؟ . . ومن اين لنا بهم يا فان ريك ؟

فصاح مارك وفى عينيه بريق النصر .

ـــ اذا أردتم أن تعرفوا ذلك فاتبعونى .

وسار بخطوات واسعة نحو باب الخروج يتبعه زعماء الثورة والشعب الذى بلغ هياجه اقصى حد . واضطر اتباع بيتر بيلد الى ان يتبعوه هم الآخرون ، وتقدمهم مارك حتى بلغ دار نقابة عمال الاسلحة ، وهى بناية كبيرة يؤدى اليها سلم كبير مزدوج مكون من خمس عشرة درجة . وصعد مارك هذا السلم ولما بلغ نهايته تحول الى مواطنيه وقال :

ـــ يا أهالى جنت يجب أن ننتصر أو نموت . نحن اربعة آلاف واكثرنا لا يجيد استخدام السلاح بينما تبلغ

جيوش الدوق ألفا سبعة آلاف مقاتل عدا خمسة آلاف سينضمون اليهم بعد ساعات ، واذا حدث هذا فلن نستطيع الصمود امامهم . وساريكم الآن الجنود الألفين الذين نحتاج اليهم .

ودخل العمارة والشعب الهادر خلفه . وكانت قاعة نقابة الأسلحة تعج بأسرى الوالون ، ثمار النصر الذى احرزوه اول يوم . وكان البعض جالسا يلعب النرد بينما استند البعض الآخر الى الجدران وغرقوا فى افكارهم . ولعلهم كانوا يفكرون فى نسائهم واولادهم ويعرفون كيف يعامل الدوق اسراه ويخشون ان يلقوا من الهولنديين نفس المصير .

وعندما دخل زعماء الثورة القاعة يتقدمهم مارك فان ربك ارتد اكثر الأسرى الى الخلف مذعورين . وتسلل بيتربيلد واتباعه خلف الزعيم الشاب على أهبة التدخل لافساد خططه عند اول محاولة .

واذ رأى الوالون المواطنون ينظرون اليهم شـــزرا واضعين ايديهم على قبضات خناجرهم أدركوا أن منيتهم قد حانت واسرعوا الى آخر القاعة يحتمون بها . ولم يضع مارك دقيقة واحدة بل بدأ يقول :

ـــ اليكم خطتى ايها الأصدقاء . ان الألفى جندى الذين نحتاج اليهم موجودون ويشكون البطالة وفى هذه القاعة وحدها خمسمائة منهم والباقون فى اماكن متفرقة غير بعيدة وبفضل مساعدتهم لنـــا يمكننا أن ندحر الطاغية وأن نعامله بنفس معاملته لنا . كنتم تتكلمون

منذ لحظات عن الانتقـــام وهذا امر ليس جديرا بكم يا أصدقائى وانني اعرض عليكم فرصة شريفة للثار ، وهي ان نقهر العدو مستخدمين نفس جنوده . فمــا رايكم ؟

وكان في القاعة غير اسرى الوالون اكثر من الف وخمسمائة من الأهالي ما كادوا يفقهون قول مارك حتى سرت بينهم همسات الدهشة والاستنكار . وارتفعت قبضاتهم مهددين متوعدين : فان ريك خائن .. جنود الدوق الفا ينضمون الينا .. يقينا ان الاسبانية الجميلة لعبت بعقله .. كم قبضت من الدوق يا فان ريك ؟

وتدخل بتر بيلد بدوره فقال :

ــ اسمع يا فان ريك ... سوف نبدا بقطع عنقك اذا انقلبت ضدنا .

فقال مارك في هدوء :

ــ حسنا يا صديقي .. اذهب واعد المشنقة اذا اردت ، ولكنى لم افرغ من حديثى بعد .

وتحول الى الأسرى المشدوهين واستطرد :

ــ يا جنود الوالون .. انكم اخوة لنا وتعانون انتم وزوجاتكم واولادكم من الطاغية المستبد نفس ما نعانيه نحن . وعدونا اللدود هو نفس عدوكم . وانني امنحكم اليوم الفرصة للانضمام الينا لدحر هذا الطاغية المستبد .. لا تخافوا .. لنوحد قوانا فننتصر بكل تاكيد .. ايها

الاخوة الوالون .. هل تشتركون معنا فى القتال فى سبيل حريتنا المشتركة ؟

فاجابه الاسرى فى صوت واحد بدا كقصف الرعد :

ــ نعم . نعم ..

وانبسطت اساريرهم وامتلأت قلوبهم أملا وامتنانا نحو ذلك الذى يتاهبون لاتخاذه زعيما لهم ، وقال مارك:

ــ ستقاتلون معنا اذن ؟

ــ نعم ، نعم .

ــ ونموت معا اذا اقتضى الامر ؟

ــ نعم ، نعم .

وفى اثناء ذلك سرت همسات الاستنكار فى صفوف اتبــاع بيتر بيلد ، ولا عجب فقد كان بغضهم لجنود الوالون يعدل بغضهم للطاغية المستبد . وسمع مارك بين هذه الهمسات كلمة « خائن » توجه اليه كأنمـا أصابته صفعة على جبينه وصاح وقد طفح به الكيل :

ــ بل انتم الخونة لانكم تفضلون المذابح غير المجدية على نصر تكتسبونه .. يا أهالى جنت . لا تصغوا الى هؤلاء الحمقى وثقوا بى اننى اناشدكم أن تطلقوا سراح هؤلاء الرجال فهم على استعداد للانضمام الينا .. كفانا مضيعة للوقت فى مجادلات عقيمة وفى أقوال حمقاء ان دلت على شيء فعلى منتهى الوحشية . ان الدقائق التى تمر بنا ثمينة والامدادات الاسبانية تقترب من جنت

فدعونى افعل ما اريد ، وانى اضمن لكم جنود الوالون كما اضمنكم انتم انفسكم .

وفى هذه المرة دوت القاعة بالتصفيق وسكت المعارضون وصاح الوالون يقولون :

ــ يحيا أورانج .. تحيا الحرية .. يسقط الاسبانى .

وقال مارك : اعيدوا اليهم أسلحتهم واتبعونى جميعا . سوف نجمع الشمل واذا لم نحصل بعد نصف ساعة على الفى جندى فانى راض بان تشنقونى .



اهتزت المدينة من جديد تحت قصف المدافع ودوى الرصاص . فقد هجم الثوار على القلعة وامتلأت الأرض المنبسطة التى تحيط بالخندق بجثث الموتى مرة اخرى . وكرر الثوار الهجوم على الرغم من خسائرهم الفادحة ، وشيئا فشيئا اتسعت الثغرة ونفدت الذخيرة من القلعة وسكتت مدافع الاسبان . ولم يجد هؤلاء مفرا من رجمهم بالأحجار الضخمة . اما جنود الوالون فقد أتوا بالعجب العجاب .

وما هى الا اقل من ساعة حتى سقطت ابواب المدينة فى حين راح الدوق الفا يسير فى غرفة المجلس الأعلى كالأسد الحبيس . وتحول غضبه الى يأس قاتل لعدم وصول الامدادات وصاح يقول للمرة العشرين : ماذا يفعل براكامونت ؟ .. لا يمكن أن تكون هذه الحثالة قد استولت على ابواب المدينة .

وكان قد أصدر أوامره لرجاله بالهجوم مرتين ولكن الثوار صدوا الهجوم فى كل مرة وامتلأ الخندق بجثث القتلى . واخذت الثغرة التى احدثها جنود الوالون فى سور القلعة تزداد اتساعا وتمكن الثوار اخيرا من تسلق الاسوار بعد ان افلحوا فى عبور الخندق مستعينين بجسر أقاموه من الحراب والرماح . ولكن القذائف راحت تنهال عليهم وكانت خسائرهم فادحة .

اما الاسبان فقد منوا بخسائر افدح واكبر فقداصيب الضابط افيلا باصابة خطيرة ، ومات ثلاثة من الضباط الآخرين . وغادر الدوق عرينه وراح يجرى من جماعة لأخرى وقد تغيرت سحنته وتمزقت ثيابه وسال الدم من يديه . وجعله الغضب والخوف يبدو مخيفا ولم يكن خوفه من الخطر فهو لم يكن يابه بالأخطار وانما كان مرجعه الى الهزيمة وما سوف يتعرض له من ذل وهوان، واخذ يهدد جنوده ويتوعدهم بالويل والثبور وهو يرى آماله تنهار وتتقوض .

وبدأ النهار يولى واخذ مارك فان ريك يقود رجاله وهو يصيح « يحيا أورانج .. وتحيا الحرية » . وتلقى على كتفه حجرا ضخما واصيب بجرح فى جبينـــه وتمزقت سترته ، ولكنه لم يعبا بهذا كله وصاح « الى الثغرة ايها الابطال » .

واسرع الى مكان من الخندق امتلأ بالحجارة ، ولكن اصابه فى هذه اللحظة سهم اخترق ذراعه الأيمن ، وتلقى حجرا على راسه فاستولى عليه الدوار وسقط على حافة الخندق . ولكنه صاح برجاله يقول :

ـــ لا تلقوا بالا الى وتقدموا .. ان القلعة لنا .

وهجم الثوار على الثغرة هجمة واحدة ولكن الاسبانيين راحوا يدافعون عنها دفاع المستميت واضطر جنود الوالون ، وعلى رسهم لورنس فان ريك الذى حل محل اخيه الى التراجع مرتين .

وفى هذه الأثناء كان مارك قد تغلب على ما أصابه من دوار وابتعد من ذلك الجحيم ، وجمع مائة من الرجال البواسل الأشداء ودار واياهم بالقلعة حتى بلغوا المستنقعات ومن غير ان ينطق احدهم بكلمة تجردوا من ثيابهم ثم حمل كل منهم مسدسه فى يده اليمنى وامسك بسيفه بين أسنانه وتوغلوا فى المياه الضاربة الى اللون الأخضر . وبلغت المياه سيقانهم ثم ركبهم ولم تلبث أن غطت أردافهم ، ولكنهم كانوا من سكان المدينة ، وكانوا يعرفون الأماكن التى يمكنهم التقدم فيها دون ان يلحقهم أذى . ولمعت سواعدهم وظهورهم بالعرق وبدت كأن لونا غريبا يكسوها تحت وهج الشمس الغاربة . وخرجت من صدورهم أنفاس ساخنة . وكانوا يتوقفون من لحظة لأخرى لاسترداد قواهم يستأنفون تقدمهم فى عزم واصرار . واخيرا وطأت أقدامهم أرضا ثابتة وراوا أسوار القلعة الخلفية ، وكانت وعرة مملوءة بالصعاب .

وتحول مارك الى رجاله وقال لهم فى صوت خافت :

ـــ هذا هو الهجوم الأخير الذى عليه يتقرر مصيرنا ايها الأصدقاء .. اتبعونى والنصر لنا .

وبدأ هو نفسه فتسلق السور فى صمت . وتبعه

الآخرون وهم يجزون على اسنانهم ويتشبثون بالاعشاب النامية ويثبتون اقدامهم فى الأماكن البارزة من السور .

وفى الناحية الاخرى من القلعة كان يبدو ان الموقف يزداد سوءا بالنسبة لجنود الوالون لأن صيحات الفرح والسرور كانت ترتفع بين صفوف الاسبان الذين يدافعون عن الثغرة .

وبلغ مارك اعلا السور . وكانت الحراسة فى هذه الناحية ضعيفة تتكون من بضعة رجال وذلك ليقين الاسبان من تعذر عبور المستنقعات . وفى ثوان معدودة تغلب الهولنديون على الحراس الاسبانيين قبل ان يتمكن هؤلاء من اعطاء الاشارة لأصحابهم ، ثم اسرع مارك ورجاله وهم عراة كالقرود فهبطوا المنحدر فى طريقهم الى فناء القلعة وهم يصيحون صيحات نكراء . وعمل عنصر المفاجاة عمله فحسب الاسبان أن الثوار استولوا على القلعة من مكان آخر ، فالقوا باسلحتهم فوق الأرض وبادروا بالفرار هاربين من موت محقق . ودهش جنود الوالون وهم يرون الثغــرة تخلو من مدافعيها فجأة فاسرعوا بالدخول وعلى رأسهم لورنس فان ريك ، وما هى الا دقائق معدودات حتى كانوا قد تغلبوا على حراس الجسر وأنزلوا الجسر المتحرك فى بطء امام افواج زملائهم من الثوار .

ولم تمض ربع ســاعة حتى كان كل الاســبانيين الموجودين داخل القلعة قد القوا باسلحتهم ارضا ووقعت

القلعة بين ايدى الاورانجيين .
وقف مارك فان ريك فوق الشرفة المؤدية الى غرفة المجلس الاعلى يحيط به بعض رجاله وصاح يطالب باسم الأمير أورانج تسليم الحاكم العام فورا ثم وقع مغشيا عليه بين ايدى زملائه .

* * *

الفصل الثامن

ساعة النصر

في اثناء تلك الساعات العصيبة الدامية لجأ الكثير من النساء والأطفال الى الكنائس ، فقد خطر لهم انها اقل خطرا من البيوت التى تنهار ما بين لحظة واخرى . وازدرى البعض هذا الخطر وابوا ان يغادروا بيوتهم حتى آخر لحظة مفضلين التضرع الى الله فى عزلتهم ووحدتهم .

ومن بين هؤلاء كليمانس فان ريك . وكانت عندما كشفت لينورا للورنس عن قرب الكارثة قد أصرت على البقاء فى القصر على الرغم من توسلات ابنها ، وابت الا ان تشارك ولديها مصيرهما وان تتحدى الموت مثلهما وفى الغرفة الصغيرة التى شهدت الشوط الأول من المأساة منذ اسبوع كانت جالسة بغير حراك تحدق بعينيها الفارغتين فى النار . وكان المحافظ قد جلس امام المنضدة الكبيرة واخذ راسه بين يديه وساد المكان صمت ثقيل ، فهو منذ ان عاد من القلعة مثقلا بالذل والمهانة لم يفتح شفتيه . كانت قضية الاورانجيين بالنسبة له قضية خاسرة واصبح مصير ولديه معروفا . كان الموت

فى انتظارهم جميعا ، اما فى المعركة واما فى التعذيب الشديد بعد المعركة .

ومرت الدقائق ثقيلة بطيئة كالدهور ولم يلبث ان هبط الليل فتباعدت الطلقات ثم انقطعت تماما .

ودخل بيير فجاة يحمل فى يده مصباحا وصاح :

ــ سيدى ، سيدى .. لقد توقف اطلاق النار .. لقد وقعت القلعة فى ايدينا وسلم الدوق .

واوشك المصباح ان يفلت منه وهو يضعه فوق المائدة واسرع بالخروج تاركا الباب العمومى مفتوحا ليتناهى الى سمع المحافظ وزوجته صيحات الرجال بالخارج . وهتف احد الرجال الذين يركضون وهو يلهث :

ــ لقد استولى فان ريك على القلعة ووقع الدوق الفا اسيرا . اذهب وقل هذا لامه .

واسرعت كليمانس الى عتبة الباب وصاحت :

ــ واين مارك ولورنس ؟

وخرج المحافظ من جموده وقال :

ــ ساذهب الى دار البلدية لاستقاء الانباء .

وغادر البيت . اما زوجته فقد عادت الى الداخل . كانت شاحبة اللون مضطربة اليدين . ترتجف ما بين آن وآخر فقد كان يبدو لها ان اقداما تتوقف عند الباب،

وكانت الليلة حالكة الظلام ، ولكن الحرائق كانت تضيء السماء بلهبها الاحمر . ومن وقت لآخر كان جزء من جدار او سقف بيت ينهار مصدرا صوتا يمزق القلوب . ثم دقت النواقيس اخيرا احتفالا بالنصر .

واقبل لورنس اخيرا وهو يبتسم ابتسامة الرضا والسعادة . وبعد ان اطمانت امه عليه سالته عن مارك فاجاب :

ـ انه جريح . ولكنه سيكون هنا بعد لحظات . لم يشا البقاء فى القلعة ليعنوا به . وبعض الرجال يصنعون محفة لكى ياتوا به . اواه يا اماه .. يجب ان يزيد حبنا له .

احست كليمانس بحلقها يجف فاسرعت تصدر اوامرها للخادمة حتى لا يغلبها البكاء واسرعت هذه الاخيرة لاعداد غرفة البطل .

وقال لورنس : امى العزيزة .. اننا ندين بالنصر بعد مارك الى لينورا .

قست ملامح كليمانس على النور ولكنها لم تجد متسعا من الوقت لكى ترد لان ببير دخل كالصاعقه وهو يقول :

ـ سيدتى .. سيدتى .. هناك سيدة .. السيده الاسبانية .. فهل يجب ان ..

وقبل ان يفرغ من قوله هتف لورنس فى دهشه فقد بدت لينورا فى هذه اللحظة بعتبة الباب . وهبت كليمانس واقفة وقد لمعت عيناها بالحقد والغضب ومدت يدها نحو الباب قائلة :

ـ اخرجى .

ولكن لينورا تقدمت . كانت اشد بياضا من لون ياقتها . وكان معطفها الأسود يغطى جسدها النحيل الرشيق . وكانت حاسرة الراس ، وانعكس ضوء المصباح على شعرها الذهبى . وكانت عيناها تلمعان ببريق غريب . ورآها لورنس تتقدم فى ثبات والجم الاعجاب لسانه . بيد ان كليمانس ، فى ذروة كراهيتها للمرأة التى تسببت فى هذه المأساة صاحت بها فى صوت مضطرب :

ـ قلت لك اخرجى .

واجابتها لينورا فى هدوء :

ـ انهم يأتون بمارك .. وهو جريح .. وقد يكون جرحه خطرا .. ولكنه عندما يفتح عينيه سيسال عنى ولا استطيع الرحيل الا اذا طردنى .

وتدخل لورنس فقال : ولكن لينورا زوجة مارك يا امى ، وهى التى انقذتنا وسيذكر لك مارك ما بذلته من اجلنا .

احست كليمانس بالاعياء تملكها الانفعال فلم تستطع الجدال وجلست واخذت تنتحب فى هدوء . وحاول لورنس مواساتها عبثا ، حسبت لينورا أن البكاء سيحدث رد فعل شاف للمراة الباسلة انتظرت فى صبر نافذ نهاية الازمة ثم قالت فى صوت رقيق ممزوج بالمرارة :

ــ اعلم اننى كنت غريبة عن هذا البيت منذ البداية يا سيدتى . وقد تمنيت انا نفسى اكثر من مرة فى هذه الايام الأخيرة لو ان القدر لم يجمعنى بابنك ، ولكننا لا نستطيع التحكم فى مصائرنا فان الله يدير كل شىء ويختار بنفسه الأدوات التى ينفذ بها ارادته ، وليس فى وسعنا نحن الا ان نحنى الرؤوس .

فقالت كليمانس خلال دموعها :

ــ وكذلك يختار الشيطان اعوانه هو الآخر . . اتوسل اليك أن تذهبى . الا تدركين ان مجرد رؤيتك عذاب .

ــ دعينى ابق حتى عودة مارك على الاقل يا سيدتى، وسارحل بعد ذلك .

ــ كلا . انك لن تريه . . لن ادع جاسوسة تنحنى فوق بطل كابنى . . نعم ، جاسوسة ، ماذا جئت تفعلين هنا ؟ كنت تتجسسين وتتصنتين على الأبواب وتراقبين كل حركاتنا لتنقليها الى اصدقائك . لا مكان فى هــذا البيت الا للقوم الشرفاء . . اذهبى حالا والا . .

وبينما كانت كليمانس تتكلم كان لورنس ينظر الى لينورا متوسلا يحثها على الهدوء . وكانت المراة الشابة

تبذل مجهودا جبارا لكي تحتفظ برباطة جاشها . ولكن كلمات كليمانس فان ريك الأخيرة كانت شديدة القسوة والظلم فلم يسعها الا ان تصرخ المـــا وترتمى عند قدمى المراة وتاخذ بيديها قائلة :

ـــ اسكتى بالله يا سيدتى ، فاننى لا استحق ماتقولين .. اننى اقدمت على ما فعلت اعتقادا منى بانها ارادة الله . واود الآن لو انزل عن حياتي كلها لأمحو ما فعلت . ظننت ان رامون قتل غيلة وغدرا فى الظلام ، واخذ ابى وعدا منى بان انتقم له . صحيح اننى تجسست عليكم وعرفت اسراركم ونقلتها لابى ، ولكن لم يكن فى مقدورى ان افعل غير ذلك فليس لى غيره فى الدنيا وكنت اؤمن به ايمانى بالله .

وتحطم صوتها فى انين طويل وسقطت راسها فوق يدى كليمانس فلم تحاول هذه سحب يديها كانت ضعيفة وسلبية بطبيعتها فلم تجد القوة لكى تبعد الاسبانية عنها او لكى تضمها اليها .

واستطردت لينورا تقول وقد هدأ انفعالها :

ـــ انك تابين ان ارى زوجى مارك . تخشين ان اكون عائدة اليه جاسوسة عدوة .. اواه يا سيدتى لمـــاذا تختارين هذه الوسيلة القاسية للاقتصاص منى ؟ .. دعيني اراه فان لدى الكثير اريد ان افضى به اليه . اعلم اننى اخطات نحوكم ولكننى اخطات نحوه هو اكثر واريد ان يغفر لى لاننى .. لانني احبه ، واذا صدنى هو الآخر فليس امامى الا الموت لاننى تخليت من كل شىء

فى سبيله فى ساعة الخطر . دعينى أنتظره يا سيدتى . اتوسل اليك ، لعله يدرك الآن مقدار حبى له ومقدار حاجتى الى حبه .

وكانت تتكلم وتعترف بحبها لمارك فى صوت متهدج . وبينما هى تتحدث ظهر مارك بالباب وهو يترنح . وباشارة ملحة من اصبعه رد صيحة الفرح التى أوشكت أن تفلت من بين شفتى امه واخيه وسمع اعتراف تلك التى يحبها .

ومضت لحظات ولينورا مرتمية عند قدمى كليمانس ورأسها فوق ركبتى المرأة العجوز . وكانت قد أطبقت عينيها وقد أنهكها التعب ولم تعد تشعر بشىء غير ارهاق كبير وحاجة اكبر الى النوم والى حلم يلحقها فيه مارك ويعيد على سمعها عبارات الحب التى افضى لها بها فى حانة دندرموند .. وفجأة ، ومن غير أن تدرى ، تحقق هذا الحلم الجميل اذ رأت مارك منحنيا فوقها يعاونها على النهوض ويقول لها فى صوت ملأه الحب والحنان .

ــ لينورا .. زوجتى الصغيرة الباسلة ... ان حبك هو الذى قادنى الى النصر ... لن انسى هذا ابدا .

وردت لينورا عليه بابتسامة مشرقة . ولحظت امتقاع الشاب فصاحت مذعورة :

ــ ولكن جراحك يا مارك ؟

ــ ليست بذى بال يا حبيبتى . لقد اعتنى بى بعض

ذوى النفوس الخيرة هناك ورافقونى حتى هنا . بضعة خدوش وقليل من التعب . وهذا كل شيء فلا تنزعجى . .

ودنا منها وسألها فى صوت خافت :

ـ أصحيح يا حبيبتى ما سمعت من شفتيك الآن ؟

ـ نعم يا مارك . صحيح . اننى احبك اكثر من كل شيء فى الدنيا . اصفح عنى لاننى لم اقل لك ذلك قبل الآن .

ولا ريب انه صفح عنها لانه اخذها اليه وضمها الى صدره .

* * *

الخاتمـــة

مازال الكثيرون يعتقدون حتى يومنا هذا أن موت الدوق ألفا فى ذلك الوقت بالذات كان يوفر الكثير من الآلام والعذاب والبؤس على شعوب البلاد المنخفضة ويحث ملك أسبانيا على أن يكون أقل ظلما واستعدادا .

وقد وجه اللوم الى مارك فان ريك ، زعيم الثوار فى جنست سنة ١٥٧٢ لتسامحه مع الحاكم العام .

وانصافا للحق نقول ان الشاب الهولندى الباسل كان قد أعياه المجهود الكبير الجبار الذى قام به فوقع فريسة المرض بمجرد عودته الى بيته ، ولكن كبار مدينة جنت وعلى راسهم المحافظ هم الذين اداروا دفة المفاوضات مع المستبد . وكما كان متوقعا فقد قدموا الدليل فى تلك الفرصة على تسامح ما كان يجب أن يصدر منهم ، فبعد يومين من الحوادث الدامية التى اتينا على ذكرها راى أهالى جنت الدوق ألفا يجتاز ، ذليلا وان كان سليما معافى ، الخرائب التى مايزال الدخان يتصاعد منها ليعود الى بروكسل .

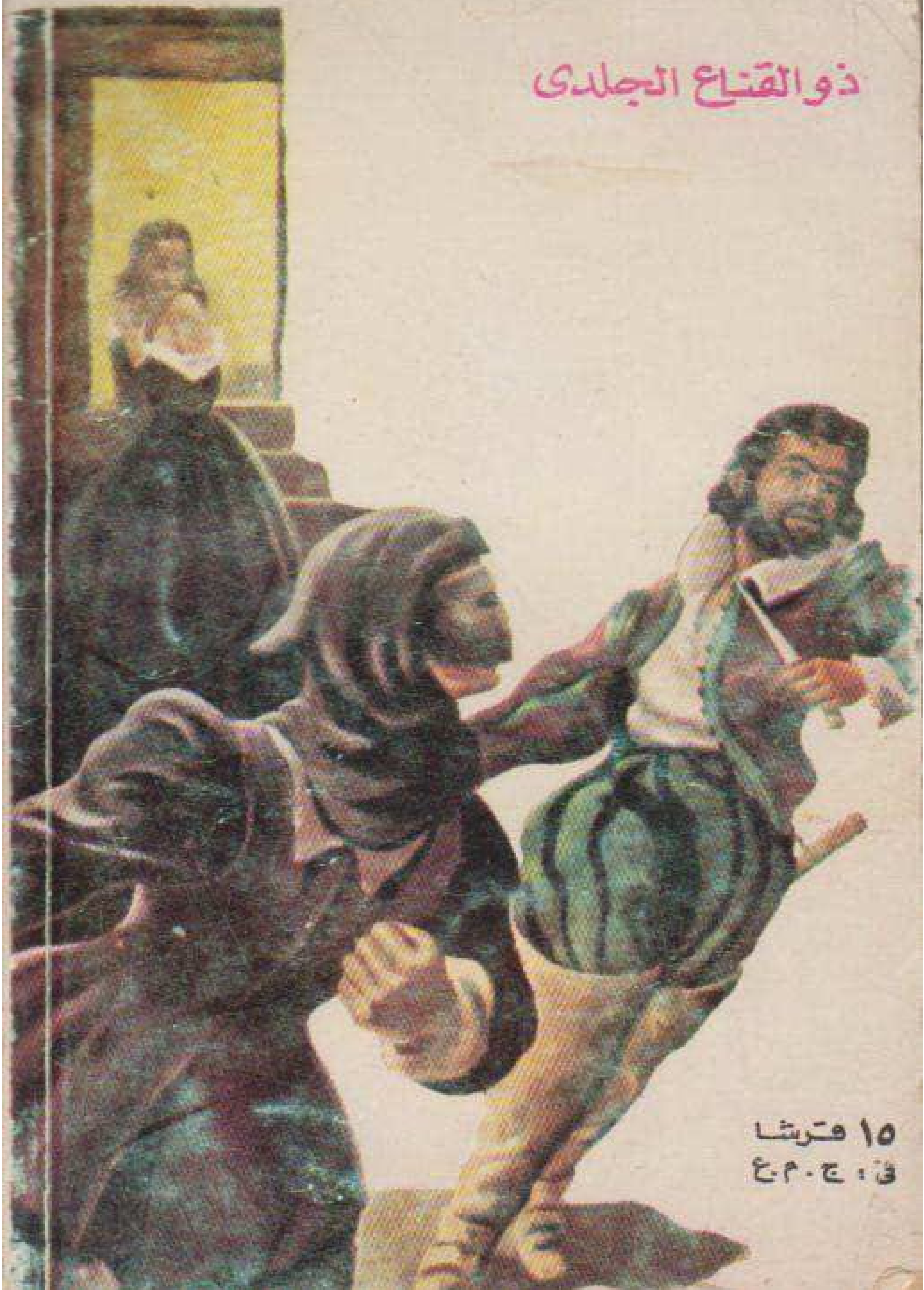
وكان اهالى مدينة بروج قد اسروا قبل ذلك بنحو قرن الامبراطور مكسيمليان ، ملك النمسا وارغموه قبل

اطلاق سراحه على اصدار اوامره بانســحاب جميع الفرق الاجنبية . واستمد اهالى جنت الالهام من هذا المثل فطالبوا الدوق الفا بنفس الامتياز . وهكذا نجت جنت من الدمار التام . وبعد سنة من ذلك عــاد الدوق الى اسبانيا قبل أن يجد متسعا لاشباع انتقامه .

ومن المؤكد ان كبار مدينة جنت كان فى مقدورهم الحصول على امتيازات اكثر باحتفاظهم باعضاء المجلس الأعلى فى الاسر ، وعلى وجه التحديد ، بجيــان دى فارجاس بالذات ، وهى امتيازات كانوا يطالبون بها منذ نصف قرن عبثا .

ولكنهم اطلقوا سراح الدوق الفا ، ولم يعترض ابطال هذه القصة على ذلك القرار الغريب ، فقد اشــتروا نصرهم بثمن غال من الدماء بحيث لم يعد فى مقدورهم الاحتجاج .

« تمــــت »


ذو القناع الجلدى
١٥ قرشا
ق: ج.م.ع